

جبر الوجود على العلم والفهم

حركات تحرير المرأة في مصر

دراسة علمية .. بمفهوم إسلامي

دار الأحياء

دار الإعتصام

٨ شارع حسين حجازي - تليفون ٢٦٠٣١ / ٣١٧٤٨ - ص ب ٤٧٠ - القاهرة

للطبع والنشر والتوزيع

عبد الوارث السعيد الفاضل

حركة تحرير المرأة في مصر

دراسة علمية .. بمفهوم إسلامي

دار الأحياء

حرکت تحریر المنزلة فی مضمر



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

لأنى ابتغى بهذا البحث وجه الله العلى القدير وحده . . ولأنى أحاول به حسم واحدة من أهم وأخطر المشاكل التى ترهق مجتمعنا وهى مشكلة علاقة الرجل بالمرأة . أو ما يسمونه حرية المرأة . فقد حرصت على أن يكون نسيجه كله من الحقائق . الحقائق التاريخية والحقائق الدينية والحقائق العلمية .

فنحن أولا شعب أرهق التاريخ ولا يزال عبر خمسة آلاف سنة تزيد ولا تنقص . وطالما كان التاريخ يلهث وراء أحداثه حتى لا يضل عنه شيء منها . وفى تاريخنا حقائق كثيرة يمكن أن يستخلص منها الباحث ما يحتاجه فى شتى فروع المعرفة .

ونحن ثانيا شعب متدين استطاع بإيمانه بالله الواحد وبالتزامه بأحكام عقيدته أن يقيم أعظم حضارة عرفها التاريخ القديم . ثم استطاع بعد دخوله الاسلام أن ينهض من كبوته وأن يبذل أعظم حضارة عرفها التاريخ الوسيط . وما استطاع فى يوم من الأيام بعيدا عن السلوك الدينى القويم أن يكون الا تابعا شقيا بظلم متبوعيه وقسوتهم عليه .

كذلك فان مجتمعنا المعاصر حافل بالحقائق التى يجب أن يكون

لها دور في صياغة مفاهيمنا ورسم سلوكنا وتخطيط حاضرنا ومستقبلنا . من هذه الحقائق على سبيل المثال :

أولا : ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بمنجزاتها الضخمة التي يتقدمها تحقيق الاستقلال السياسي والاقتصادي . وتحقيق الاستقلال السياسي انجاز لا يعرف قدر عظيمته الا من درس تاريخ الشعب المصرى وتتبع مسيرة نضاله العنيد عبر ثلاثة آلاف عام ضد الغزاة والطفاة .

والاستقلال الاقتصادى انجاز رائع لأنه يرمز الى التشمول والاحاطة في فكر الثورة الذى لم ينقل عن الفكر الغربى نقلا جامدا . بل درس وتعقب واستوعب ثم ابدع فكرا جديدا واصولا جديدة تحترم العقيدة الاسلامية والملكية الفردية . ولا تؤمن بالعنف في حل التناقضات الاجتماعية ثم هى حرب على الفقر والاستغلال .

ثانيا : هذه الحروب الفسواء التى تشنها الامبريالية والصهيونية على الاسلام والمسلمين عاملة على خلق اجيال من ابناء المسلمين تجهل خصائص الاسلام واحكامه وتتنكر لها . حرب خبيثة بدأت منذ دنست اقدام الاستعمار ارض الوطن العربى في شكل حروب صليبية في العصر الوسيط وما زالت مستعرة الأوار الى يومنا هذا . ولقد نجح الاستعمار في خلق افراد كثيرة ولا أقول أجيالا تجهل الاسلام وتتنكر لأحكامه ومبادئه .

ثالثا : طاقات شعبنا الهائلة ومنطقاتها التى تكمن في تحقيق العدل بمفهومه الاسلامى الذى لا يترك ثغرة للمظالم وليس بمفهومه الغربى المتغير تغير الأهواء . والحرية التى لا تشوبها شائبة من تسلط او قهر . والمساواة التى لا تفاضل بين الناس الا بقدر ولائهم لعملهم ووطنهم .

وفي اعتقادى أن إعادة تنظيم المجتمع المصرى قد أصبحت ضرورة وطنية . وأن هذا التنظيم يجب أن يتم في اطار مبادئ ثلاثة :

اولها : ان الشعب المصرى شعب متدين وان الاسلام دين الدولة
الرسمى . فلا ينبغى ان يكون فى سلوك اى مسئول
ما يتناقض مع هذه الحقيقة .

ثانيها : ان الشعب المصرى جزء من الأمة العربية بل هو قائد
هذه الأمة ورائدها فلا يجوز ان تستخدم أجهزة الاعلام
والثقيف لفتنا العامية . بل يجب ان تكون العربية
الفصحى لغة الكلمة المكتوبة والمسموعة .

ثالثها : ان الشعب المصرى شعب أفريقى يقف حارسا مسئولا عن
الباب الشمالى اشرقى لأفريقيا . فلا يليق بنا ان نحول
بلدنا الى قطعة من أوروبا فى تبرجها واتحلال شبابها .

ومن البديهى ان إعادة تنظيم المجتمع يجب ان تبدأ بالأسرة التى
تعتبر الخلية الأولى للمجتمع . وبالتالي فان مشروع اصلاح الأسرة
يجب ان يبدأ بإعادة النظر فى الدور الذى تقوم به المرأة المصرية حاليا .
وهو الدور الذى أشركها مع الرجل فى عمله والذى كان هدفها
أساسيا بين أهداف حركة تحرير المرأة فى مصر .

وهذه الدراسة تهتم بمتابعة حركة التحرير تلك سواء من حيث
نشأتها ومفهومها كما تهتم ببيان النتائج المتوقعة لجهودها على ضوء
ما وصلت اليها حركة تحرير المرأة فى البلاد الغربية . والله ولى
التوفيق ... (1) .

عبد الواحد اسماعيل القاضى

(1) هذا الكتاب فرغت منه عام ١٩٧٤ .

الفصل الاول

حركة تحرير المرأة

في عام ١٧٩٢ حين كانت الثورة الفرنسية تجتاز أخطر مراحلها نشرت سيدة انجليزية اسمها ماري ولستون كرافت كتابا عن حقوق المرأة اسمه *A Vindication of the Rights of Women* ويعتبر هذا الكتاب أول إثارة لموضوع حقوق المرأة في انجلترا وربما في العالم كله . غير أن دعوة المطالبة بحقوق المرأة كانت بطيئة الحركة خفيضة الصوت حتى منتصف القرن التاسع عشر حين نجحت في كسب تأييد بعض أعضاء مجلس العموم وتحريضهم على إثارة موضوع حقوق المرأة في المجلس . ومع أنه لم يصل إلى قرار لمصلحة القضية إلا أن مجرد أثره في ذلك المجلس كان دفعة قوية لها لأن أصحابها واصلوا نشاطهم بحماس حتى صدمهم جلدستون رئيس الحكومة بعبارة المشهورة « المرأة ستكون عبئا ثقيلا على ميزانية الدولة . ” (Women would overweight the Bill)

وفي الولايات المتحدة الأمريكية بدأت حركة المطالبة بحقوق المرأة في عام ١٨٣٢ وفي ١٨٤٨/٧/١٩ اجتمع أول مؤتمر للدفاع عن حقوق المرأة . ويعتبره الأمريكيون أول مؤتمر من نوعه في التاريخ كما يعتبرونه بداية الحركة النسائية في العالم . ومنذ ذلك التاريخ نشطت حركة تكوين النوادي والجمعيات النسائية حتى بلغ عددها في عام ١٨٩٠ خمسة عشر ألف ناد . وكانت الحركة تستهدف اعداد المرأة لتؤدي دورها في مختلف مجالات الحياة

عندما تنتهى التغييرات الاقتصادية فى العالم الى ازالة كثير من الأعمال المنزلية .

واطرد نمو حركة المطالبة بحقوق المرأة حتى حققت أهدافها فى كل من انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية . فبعد الحرب العالمية الأولى وفى عام ١٩١٨ بالذات منحت المرأة فى انجلترا حقوقها السياسية . ومنحت فى العام التالى حق العمل والتعيين فى مختلف وظائف الدولة . أما فى أمريكا فقد كانت التشريعات المنظمة لحقوق المرأة تلاحق زميلاتها فى انجلترا . ففى عام ١٩٢٠ حصلت المرأة الأمريكية على الحقوق السياسية وفى عام ١٩٤٢ تمت مساواتها بالرجل فى كل مجالات العمل « انظر الجزء ٢٣ ص ٧٠٤ من الانسيكلوبديا البريطانية » (١) .

أما فى مصر فقد أنشئ اتحاد نسائى لأول مرة عام ١٩٢٣ ليتصدى للعادات والتقاليد والأفكار الرجعية التى تضعف جهود المرأة وسعيها فى سبيل التحرر من تسلط الرجل واستبداده بها (٢) . وكانت السيدة هدى شعراوى هى صاحبة الفضل فى انشاء هذا الاتحاد . ذلك أن ثورة عام ١٩١٩ كانت فرصة طيبة لتجمع نسائى تؤدى فيه المرأة واجبها الوطنى جنباً الى جنب مع سائر فئات

(١) نشرت الأهرام فى صفحة المرأة بتاريخ ٢٩/١١/١٩٨٠ أن مدام دوبان التى كانت صاحبة أشهر صالونات الأدب فى القرن الثامن عشر بفرنسا نادى فى عام ١٧٤٠ بضرورة حصول المرأة على حريتها وتحقيق المساواة بينها وبين الرجل — وقد خلفت هذه السيدة مخطوطات تؤكد هذه المعلومة وكان جان جاك روسو يعمل سكرتيراً لها فى ذلك الوقت .

(٢) نسترعى نظر القارئ الى أن هذه الكلمات ليست من انشائنا وهى تعبير عن وجهة نظر مؤسسات الاتحاد النسائى .

الشعب . وفى ١٦ مارس ١٩٢٣ عقد فى بيت هدى شعراوى اجتماع لقيادات ذلك التجمع النسائى الوطنى . وتمخض ذلك الاجتماع عن مولد الاتحاد النسائى الذى كان من أهدافه الدفاع عن حقوق المرأة وربط حركة تحرير المرأة فى مصر بحركة التحرير العالمية للمرأة . وتقول بهيجة عرفة المتخرجة فى الجامعة الامريكية فى كتابها :

“The Social Activities of the Egyptian Feminist Union”

ان اهداف الاتحاد النسائى فى ذلك الوقت كانت تسعة اهداف هى :

- ١ — رفع المستوى الثقافى للمرأة المصرية لتحقيق مساواتها بالرجل سياسيا واجتماعيا .
 - ٢ — العمل على تمكين الفتاة من مواصلة تعليمها فى مختلف الكليات والمعاهد العليا .
 - ٣ — تغيير تقاليد الزواج التى تسلب الفتاة حريتها فى اختيار شريك حياتها .
 - ٤ — ادخال التعديلات اللازمة على أحكام الطلاق والزواج لحماية المرأة من ظلم الرجل .
 - ٥ — العمل على اصدار قانون بعدم زواج الفتى قبل الثامنة عشرة والفتاة قبل السادسة عشرة .
 - ٦ — تنظيم الدعاية والاعلام اللازمين لتنشيط وتقوية حركة الاتحاد .
 - ٧ — الدعوة الى التمسك بالفضيلة ومحاربة الرذيلة .
 - ٨ — محاربة العادات والتقاليد والأفكار التى لا يقبلها عقل .
 - ٩ — الاستعانة بالصحافة فى نشر مبادئ الاتحاد وأهدافه .
- وتقول بهيجة عرفة أيضا أن الصحافة العربية لم

تتعاون مع الاتحاد النسائي في أول الأمر لأن أصحاب الصحف والمحربين كانوا يخشون الغالبية العظمى من المصريين الذين كانوا يعارضون مساواة الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات . الأمر الذي دفع بالاتحاد النسائي الى الاستعانة بالصحافة الغربية والى انشاء صحيفة تخدم اهدافه .

ومما يلفت النظر أن الاتحاد لم يصدر صحيفة عربية يقرأها الشعب ويفهم موضوعاتها . بل أصدر مجلة تحرر باللغة الفرنسية أسماها L'Egyptienne أى « المصرية » تصدر مرة كل اسبوعين وكانت تديرها وتحرر موضوعاتها السيدة سيزا نبراوى سكرتيرة الاتحاد . وفي عام ١٩٣٧ قام الاتحاد بإصدار مجلة عربية أسبوعية أسماها « المصرية » كانت تحررها في أول الأمر السيدة فاطمة نعمت راشد ثم السيدة هدى شعراوى ثم حواء حبيب المصرى . وبعد أربع أو خمس سنوات توقف إصدار المجلتين بسبب عدم الاقبال على قراءتهما .

ولقد اطلعت على محاضرة للسيدة هدى شعراوى ألقتها يوم الجمعة ١٥/١١/١٩٣٥ في قاعة يورت التذكارية بدار الجامعة الأمريكية بالقاهرة يفهم منها أن حركة تحرير المرأة في مصر بدأت في وقت مبكر جدا . وبالتحديد في عهد الخديو اسماعيل — وتقول السيدة هدى شعراوى مؤسسة الاتحاد النسائي وأول رئيسة له في محاضرتها تلك ما يأتى :

« ولم يكتف الخديو اسماعيل بفتح المدارس لتعليم بنات الشعب بل دفعه حبه في الترقى السريع الى النهوض بكل الطبقات فأراد لنشر الروح العصرية بين الطبقة الراقية أن يكون مجموعة مثقفة من نساء قصره لتكون نواة لبيئة راقية مفكرة . فأمر باعطاء دروس في مختلف العلوم والفنون لبعض الجواري البيض في قصره فنبغ منهم عدد عظيم في الادب التركى والشعر وفن التمثيل والموسيقى .

والرياضة البدنية . فتكون منهن فرق للتمثيل كانت تقوم بتمثيل أدوار أخلاقية واجتماعية هزلية . كما تكونت فرق أخرى للموسيقى كانت تظهر في المواسم والأعياد وفي كل مناسبة بملابس عسكرية مختلفة . تمنح أفرادها الألقاب والأوسمة بمقدار كفاءة كل منهن . وظهر من بينهن فضليات في الشعر والأدب . عرفت منهن حرم راتب باشا السردار التي كان لها باع في الشعر التركي . وقد هيأت هذه المجموعة المثقفة جوا زاهرا تجلت فيه روح جديدة وذوق سليم . ولما أنشأ دار الأوبرا خصص لهن فيها أمكنة اعترافا منه بحق المرأة في الترويج عن نفسها والاستفادة من عظة التمثيل . ولما كان جل قصده نشر التمدين والذوق السليم بين الأسر المصرية زوج هؤلاء الجوارى المهنات الراقيات بعض رجال بلاطه ووجهاء بلده منعما على كل منهن بما يتناسب ومركز زوجها من مال وعقار وحلى وخدم .

« وبالرغم من أن هذه الطريقة قد حرمت كثيرا من بنات العائلات المصرية من مراكز الزوجية التي شغلتها تلك الشركسيات في بيوت الأمراء والوجهاء . فقد كان لتلك السيدات فضل عظيم في تمدين بيوتات كثيرة وتنظيمها والعناية بتربية النشء فيها . وظهر أثر ذلك في الجيل الحاضر والجيل المنصرم .

« ولولا أن الخديو اسماعيل خشى من أن يحدث تطور المرأة السريع ضجة ومقاومة من رجال الدين في ذلك الوقت لأعطى المرأة المصرية في عهده حرية تفوق الحرية التي تتمتع بها الآن . ولنهضت البلاد الى الدرجة التي كان يصبو اليها من رقى وتمدين » (١) .

ثم تقول في مكان آخر من محاضرتها :

« وعززت هذه الحركة — تقصد حركة التفاف علماء الأزهر

(١) تعبير رجال الدين غير إسلامي يقابله في الإسلام تعبير علماء الإسلام .

وطالبه حول جمال الدين الأفغانى — أميرة جليلة من أميرات الأسرة المالكة المغفور لها نازلى هانم فاضل . وكانت على جانب عظيم من الثقافة الغربية والشجاعة الأدبية . فجعلت بيتها كعبة رجـال الأدب ، والفضل ومنندى السياسيين من العظماء وكان رأيها بين الآراء المثل الأعلى فى السداد والحكمة . وقيل انه كان لهذه الأميرة أثر عظيم فى توجيه نصير المرأة قاسم أمين بك الى وضع كتابه « تحرير المرأة » مناقضا بذلك نفسه فيما كتبه عن المرأة فى رده على الدوق داركور . وهنا استأذن الدكتور فارس نمر فى سرد حديث أفضى به الى فى هذا الموضوع وهو لما ظهر كتاب قاسم أمين بالفرنسية ردا على كتاب الدوق داركور « مصر والمصريين » الذى ندد فيه على عادات المصريين واستبدادهم بنسائهم أنبرى الدكتور نمر لنقده فى جريدة المقطم فساء ذلك أصدقاء قاسم أمين وزملاءه وفى مقدمتهم الشيخ محمد عبده فشكوه للأميرة نازلى وكان من المترددين على ناديها فعاتبته على نقده رعاية لمركز القضاء الذى كان يشغله قاسم فأنارها بعض الحاضرين ضده بقوله : لو أطلعت الأميرة على ما دونه قاسم فى رده المذكور لشكرت للدكتور نمر نقده . فان قاسم يندد بالمرأة التى تقابل الرجال مسافرة . فشارت الأميرة واشتد غضبها حينما اطلعت بنفسها على صدق قوله فى الكتاب الذى احضروه اليها للتثبت من هذا القول . وانحت باللائمة على الشيخ محمد عبده وأصحابه الذين توسلوا اليها ليكف المقطم عن نقده لهذا الكتاب فاعتذروا لها عن قاسم واستأذنها فى أن يحضر امامها ليدافع عن نفسه ويؤكد لها أنه ما كان يقصدها فى دفاعه عن تقاليد بلاده . فاذنت ولما تشرف قاسم بمعرفتها وتردد على رجاها عرف مقدار السيدة المثقفة وأثرها الطيب فى تهذيب المجتمع . ولذلك غير رأيه وكتب كتابه « تحرير المرأة » الذى كان فتحا جديدا لحرية المرأة ونيل حقوقها » .

وفى مكان آخر من محاضرتها تلك تقول السيدة هدى شعراوى أيضا :

« أما المظاهر الملموسة لتلك النهضة — ومعظمها نتيجة مجهودات الاتحاد النسائي المصرى فتتجلى :

أولا — فى مساواة البنت للولد فى جميع أدوار التعليم وفى البعثات العلمية الأوربية . وقد أظهرت بناتنا تفوقا محمودا فى الامتحانات العامة حتى تخرج منهن عدد ليس بالقليل فى هذه المدة القصيرة . والاحصائية التى استقيناهما من مصادرها والتى سأسردها عليكم تؤيد قولى .

ثانيا — قانون يمنع زواج البنت قبل السادسة عشرة من عمرها . وفى ذلك فرصة لنمو جسمها وعقلها وتمكينها من التعليم واعدادها للأمومة الصالحة .

ثالثا — مد أمد الحضانة رحمة بالطفل الذى هو أحوج الى رعاية أمه منه الى رعاية أبيه .

رابعا — تخفيف فوضى الطلاق واجابة الزوجة فى طلبه اذا كان لديها أسباب معقولة .

خامسا — القضاء على البغاء ويسرنا أن لنا أنصارا كثيرين فى هذا المطالب الخلقى الانسانى ولنا رجاء فى تحقيقه عما قريب .

سادسا — حماية المرأة العاملة وانصافها فى ساعات العمل . ومراعاة ظروفها الطبيعية . ويسرنا أيضا أن حكومتنا لم تبخس من حق المرأة فى القانون الذى سنته لهذا الغرض كما نغتنب بقرار وزارة المعارف الذى أنصف المعلمات غُباح زواجهن مع استمرارهن فى العمل . وقد رفع الاتحاد النسائى فى هذا العام عقب عودة وفده من مؤتمر استانبول للوزارة طلبين :

الأول — سن قانون يقيّد تعدد الزوجات .
والثانى — منح المرأة الحقوق السياسية فى الانتخابات والنيابة أسوة بالرجل . واذا كان الاتحاد النسائى قد توانى فى الطلب الأخير فلأن المرأة لم تكن فى الماضى مستعدة للقيام بأعباء هذا الحق وأن كان بين الرجال الذين منحوا هذا الحق من ليسوا أكفأ منها » .

(م ٢ — حركة تحرير المرأة)

ثم تختتم السيدة هدى شعراوي محاضرتها قائلة :

« يستنتج مما تقدم أن المرأة الشرقية لم تنل شيئا من حقوقها الا عقب كل نهضة وطنية او حركة فكرية لمعاونتها للرجل فيهما حيث تظهر في غضون ذلك التعاون قوتها الكامنة وتتجلى مواهبها الفطرية التي يجهلها الرجل متأثرا بصورة المرأة المشوهة التي طبعتها في وهمه العصور المظلمة والتقاليد الجائرة . كما تحققنا أن كل أمة تشارك المرأة فيها الرجل اشتراكا عمليا هي أكثر الأمم نشاطا وانتاجا لاستغلال نصفها الذي كان مشلولاً . ولما للمرأة من أثر في بث روح الحماسة والغيرة بين أفراد الأمة » .

ان هذه المحاضرة تعتبر بحق وثيقة تاريخية هامة لكل باحث في حركة الدعوة الى تحرير المرأة المصرية . ولعل من أهم الحقائق التي سجلتها ما يلي :

١ — أن الأصل في الدعوة الى تحرير المرأة في مصر هو أولئك النسوة الشركسيات اللاتي خرجن من سجن الحريم بقصر الخديو اسماعيل الى قصور وبيوت الأمراء والعظماء ليكن زوجات لهم .

٢ — ان قاسم أمين الذي يعتبره بعض المؤرخين أول من حمل لواء تحرير المرأة لم يكن سوى واحد من استعانت بهم الأميرة نازلي غاضل في خدمة القضية التي كرس لها وقتها وجهدها ومالها . قضية بنات جنسها من الشركسيات اللاتي يعشن وراء قضبان الحرملك . وأن كتابه عن تحرير المرأة اللذين الفهما بتحريض وتشجيع تلك الأميرة لا يعبران عن رأيه الشخصي ذلك الرأي الذي يعبر عنه في صدق كتابه في الرد على الدوق داركور .

٣ — ان المرأة كانت المحور الذى دارت حوله فكرة النهوض بالشعب المصرى . وأن الخديو اسماعيل لم يفكر فى النهوض بالشعب عن طريق تنمية موارده فى الزراعة والصناعة ونشر التعليم بين أبنائه . وإذا جمعنا بين هذا المفهوم وبين رغبة الخديو فى أن يجعل مصر قطعة من أوروبا لتكشف لنا أن صورة المرأة الغربية المتبرجة المتأنقة كانت غالبية على فكره هو وأفراد أسرته وغيرهم ممن سافروا الى أوروبا .

٤ — ان قوة المرأة الكامنة ومواهبها الفطرية تتجلى فى الحركات الوطنية . وتلك حقيقة يشهد بها التاريخ ونعترف بها .

٥ — ان هدف حركة تحرير المرأة فى مصر هو مشاركة الرجل مشاركة عملية حتى لا يظل نصف الأمة مشلولاً .

ولقد حقق الاتحاد النسائى بفضل تحركه الواعى النشاط كثيراً من أهدافه فلما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ تحقق لحركة تحرير المرأة فى مصر كل أهدافها . وحسبها نجاحاً تلك الفترة التى وردت فى الباب السابع من الميثاق والتى تقول :

« ان المرأة لابد أن تتساوى بالرجل ولا بد أن تسقط بقايا الأغلال التى تعوق حركتها الحرة حتى تستطيع أن تشارك بعمق وإيجابية فى صنع الحياة » .

ولكن طموح حركة تحرير المرأة المصرية بغير حدود . ولذلك نراها بالوعى وبعد النظر لا تكتفى بتجنيع النساء حولها وبث مفاهيم التحرير فى نفوس المثقفات خاصة بل تعمل على الاستئصال بالرجال واجتذابهم الى ساحة نشاطها وميدان نضالها . وأغلب ظنى أنها قد وجدت طريقها اليهم ممهداً فقد ناصرها كثيرون وأيدها كثيرون . ولعل أخطر أنصارها هم هؤلاء الذين درسوا علوم الاجتماع واحتلوا

الكثير من مواقع العمل الهامة والمؤثرة . انهم يسخرون ابحاثهم فى خدمة أهداف حركة تحرير المرأة ويذهبون فى المطالبة لها بكل ما تسعى الى تحقيقه مذاهب لا تخلو من التطرف والطرافة أحيانا . ومثال ذلك تلك الدراسة التى نشرتها جريدة الأهرام يوم ١٩٧١/٢/٨ لواحد منهم تحت عنوان « نظرة الى المرأة المصرية المعاصرة » يقول فيها :

« واذا كان المجتمع المصرى قد جرب سيادة معظم الأدوار الاجتماعية التى يؤديها الذكور وتبميزها على الأدوار الاجتماعية التى تؤديها الاناث فى فترة من الزمان فقد آن الأوان فى الوقت الراهن — فى ضوء الضرورة الاجتماعية — ليراجع هذا المجتمع نفسه ويغير هذا الوضع الجائر — فالملاحظ من وجهة نظر مجتمعنا المصرى المعاصر ان الأنثى المصرية أقل عدوانا عليه من الذكر المصرى » .

فصاحب هذه الدراسة يدعو الرجال الى التنحى عن كل مواقع المسئولية فى الدولة وترك مقاعدهم للنساء . لأنهن أقل عدوانية على المجتمع من الرجال وأقدر على اشاعة العدل والسلام فيه . وسنعود فى فصل لاحق الى هذه الدراسة لمناقشتها وبيان أخطائها .



الفصل الثانى

مفهوم تحرير المرأة

فى اعتقادى أن لتحرير المرأة مفهومين . أحدهما المفهوم الغربى الذى أفضل أن أسميه المفهوم الوثنى لأنه أكثر دلالة عليه والثانى المفهوم الإسلامى . وسأتكلم فيما يلى عن كل منهما ثم ننظر على أى الدربين سارت حركة تحرير المرأة فى مصر .

أولا - المفهوم الوثنى

كانت حياة المرأة فى المجتمعات الوثنية والمجتمعات اليهودية والمسيحية قاسية أشد ما تكون القسوة . وقد صور حالتها الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « المرأة فى القرآن » بقوله : « وعند اليونان الأقدمين كانت المرأة مسلوية الحرية والمكانة فى كل ما يرجع الى الحقوق الشرعية . وقد كان أرسطو يعيب على أهل اسبرطه تساهلهم مع نساء عشيرتهم ومنحهن حقوق الوراثة والبائنة وحقوق الحرية والظهور ما يفوق أقدارهن ويعزو سقوط أسس سبرطة واضمحلالها الى هذه الحرية وهذا الاسراف فى الحقوق — ثم يقول : ومذهب الرومان الأقدمين كمذهب الهنود الأقدمين فى الحكم على المرأة بالقصور حيث كانت لها علاقة بالآباء أو الأزواج أو الأبناء .

وشعارهم الذى تداولوه اiban حضارتهم ان قيد المرأة لا ينزع ونيرها لا يخلع » .

لقد كانت المجتمعات المسيحية فى اوروبا اجهل ما تكون بجوهر عقيدتها السمحاء لان الفكر المسيحى لم يجد فى المجتمعات الغربية تربة صالحة لنمائه وازدهاره . ولعل ذلك راجع الى اسلوب السلطة الدينية فى التعامل مع اتباعها . وهو الاسلوب الذى نزع الى الاستعلاء والتسلط وفرض الكبت الفكرى . فضلا عن التعصب الفظيع ضد غير اتباعها من المسيحيين البروتستانت والمسلمين واليهود . وهو التعصب الذى كشف عنه تاريخ ديوان التفتيش الذى انشأه البابا عام ١٣٣٣ ميلادية والذى ظل يرتكب افطع وابشع جرائم التعذيب ضدهم الى ان اكسحه طوفان الثورة الفرنسية فى اواخر القرن الثامن عشر .. كان اسلوب السلطة الدينية فى روما فى تعاملها مع الاتباع وغير الاتباع آية كبرى على جهلها بالاساس العظيم الذى قامت عليه العقيدة المسيحية وهو المحبة والتسامح . وكان التحرير من سيطرة الكنيسة وتسلطها اعظم ما قدمته الثورة الفرنسية لشعوب اوروبا التى خرجت من سجن الكنيسة مهرولة لتجد نفسها مرة اخرى فى متاهات الوثنية كافرة بتلك المفاهيم الدينية التى فرضتها الكنيسة والتى يتبرأ منها المسيح عليه الصلاة والسلام . بل واحسبها من فرط ما شققت بعقيدتها الدينية قد كفرت بكل ما يمت بصلة الى العقائد الدينية . ولا يهم ان تحتفظ الى يومنا هذا بنسبتها الى المسيحية فحسبها انها قد تحررت من قيودها وتسلط رجالها . وهكذا يمكن القول بان المجتمعات الغربية لم تخضع فى يوم من ايام تاريخها الطويل لشريعة سماوية ولم تهذبها عقيدة دينية صحيحة .

والفكر الوثنى الذى نعتد عليه فى استخلاص مفهوم تحرير المرأة فكر عدوانى انانى يسود أعمال الأفراد والحكومات وهو لهذا فكر منحرف لا يعرف الاستواء لأن العقيدة الدينية الصحيحة هى

المصدر الوحيد للفكر السوى — على نحو ما سنبينه عند الحديث عن المفهوم الاسلامى — ومن يتأمل بتجرد واخلاص للحقيقة فى انتاج المفكرين الغربيين الاقدمين والمحدثين لا يجد صعوبة فى ادراك انحرافه وعدوانيته ولنضرب لذلك بعض الأمثلة عن الاقدمين منهم والمحدثين . وللحديث عن الاقدمين نتجه بطبيعة الحال الى طليعة الفكر الاوروبى وتراثه العظيم وهو الفكر الاغريقى حيث نجد ارسطو المعلم الاول (٣٨٤ — ٣٢٣ ق.م) يزعم أن علم الأخلاق غير ثابت القواعد يقينى النظريات كالعلوم الرياضية وأنه علم قابل للأخذ والرد . وأنه مجموعة قواعد تعليمية غير ثابتة يقصد بها تحسين أحوال الانسان . ويقول أن علم الأخلاق نافع فى بعض النواحي . وقصر هذا النفع على طبقة معينة من الشباب وهى طبقة النبلاء الكرام . لأن العامة فى رايه كالانعام لا يفعلون من الخيرات الا ما يحقق رغباتهم . ولا يتجنبون من الشرور الا ما يباعد بينهم وبين العقاب . أما الشباب الارستقراطى فيعمل الفضيلة لذاتها ويأتى الخير ويتجنب الشر لا رغبة فى مكافأة ولا رهبة من عقوبة لأن نفوسهم نشأت مستعدة للخير وترعرعت بين اعطاف النبل والشرف ...

ويقول الدكتور محمد غلاب فى كتابه « الفلسفة الاغريقية » أن ارسطو يشترط فى نظريته الى الاستقلال الاقتصادى الفناء نظام الاستئجار فى الأسرة واكتفائها بما فيها من سادة يأمرون ويدبرون وأرقاء يعملون وينتجون . وذلك لأن الرق عنده كان فى مقدمات الضرورات الاجتماعية ولذلك يسمى ارسطو العبيد « الآلات الحية » . ويقرر أنه لا يمكن الاستغناء عنهم الا حين تصبح ادارة الأنوال فى الامكان بدون حاجة اليهم . ولم يكن ارسطو يرى فى تقسيم الانسانية الى سادة وعبيد شيئاً من الظلم والقسوة . بل كان يعتقد أن هذا التقسيم نظام فطرى ارادته الطبيعة وأمرت باتباعه . فأنشأت فى البلاد الحارة كاسيا قوما كسالى خاملين

لا يصلحون الا لأن يكونوا عبيدا . وفي البلاد المعتدلة قوما نشطاء
مجدين هم السادة بطبيعتهم لا بالاتفاق .

هذا مثل صارخ للانحراف الفكرى مصدره أبو الفلسفة الذى
يعلم أنه هو وأضرابه مدينون بثقافتهم لشعوب آسيا وأفريقيا .
ويقول الدكتور محمد غلاب فى تعليقه لهذا الانحراف الفكرى :
« نحن نرى أن صدور مثل هذه الآراء من أرسطو غريب — بل
هو لا يكاد يلتئم مع منطقته وتفكيره المستقيم . ولكن لعله تورط فى
ذلك ليبرر استعباد الاسكندر الذى كان مؤسسا على نظام الرق
الفردى والجماعى » . وليس من شك فى أن الدكتور غلاب يعتذر
عن الفيلسوف الاغريقى بما هو اقتبح من الذنب .

ومن الفلاسفة الاغريق الذين يهمننا أن نذكرهم ونحن بصدد
الحديث عن الانحراف الفكرى ذلك الفيلسوف المسمى « ايبىكور »
(٣٤١ — ٢٧٠ ق.م) الذى يؤسس الأخلاق على مبدأ اللذة
الجسمية فيجعلها غاية الحياة ومرماها . ويرى أن محاولة اقتضاء
الانسان عن اللذة هى محاولة لاقتضائه عن طبيعته . وهذه
المحاولة إما أن تفشل وإما أن تنتج شقاء المقضى عن غريزته .
ويرى أيضا أن اللذة اذا وصلت الى حد أحداث اضطراب فى
الجسم أو الروح انقلبت الى رذيلة ...

ويقول ناقدوه أنه يقرر بصريح العبارة أن اللذة التى يجعلها
غاية الحياة هى اللذة الجسمية الخالصة التى يدعوها فى غير
حياء بلذة البطن . ويرد ايبىكور على مخالفيه بقوله : « أنا
لا أستطيع أن أدرك الخير اذا الفيت من الحياة لذائذ الذوق
والسمع والنظر والمتع الجنسية » وقوله أيضا : « بدون شك
يوجد سرور نفسى ولكن هذا السرور لا يكون أبدا الا من ذكريات
ماضى اللذائذ الجسمية ومستقبلها وكذلك جميع المسرات التى
يخيل الى أنها نفسية خالصة هى كلها مادية أو راجعة الى نتيجة

مادية . فمثلا لا يشعر الانسان فى الصداقة بأى سرور إلا اذا تمثل فى الصديق انه يشبه تعهدا بالأمن أو نوعا من الضمان ضد الألم » .

ولقد وجد هذا الفكر الوثنى المنحرف امتدادا آمينا له فى الفكر الغربى الحديث الذى بدأ يزدهر فى أواخر القرن الثامن عشر وفى القرن التاسع عشر . ولعل نظريات النشوء والارتقاء من أهم نتاجه . وهى النظريات التى شغلت عقول مفكرين كثيرين منذ ذلك التاريخ الى يومنا هذا والتى اتخذت أهميتها من معارضتها للمعتقدات الدينية من جهة ومن محاولة بعض أنصارها نفى هذه المعارضة من جهة أخرى — أقول ان الفكر الوثنى وجد له امتدادا آمينا فى الفكر الغربى الحديث لأنى لاحظ ان العالم الألمانى جوستاف كلم KLEIN (١٨٠٢ — ١٨٦٧) يقيم نظريته التطورية على مبدئين أولهما ثنائية السلالات البشرية بتقسيم الجنس البشرى الى قسمين : شعوب سلبية ليس لها القدرة على الاختراع والابتكار والخلق وتعيش على النقل والتقليد ويدخل فيها الزنوج والمغول والفرننديون والمصريون والطبقات الدنيا من المجتمع الأوروبى . وشعوب ايجابية نشيطة ومن أهمها شعوب الجرمان التى ينتمى اليها ذلك العالم . وهو نفس التقسيم الذى قال به أرسطو من قبل . وكان داروين معاصرا للكلم ونشر كتابه « أصل الأنواع » فى عام ١٨٥٩ وهو الكتاب الذى تضمن نظريته فى ربط الانسان بالأرض ونفى صلته بالسماء .

ولا بد أن أشير هنا الى سيجموند فرويد ذلك اليهودى الماكر الذى جعل من نظرياته فى التحليل النفسى محاولة أخرى لاحكام ربط الانسان بالأرض والقضاء على كل أمل فى اتصاله بالسماء . فهو يزعم أن جميع الظواهر النفسية سواء كانت شعورية أو لا شعورية كانت سوية أو مرضية تصدر عن قوى ديناميكية

أساسية تنبعث عن التركيب الفسيولوجى الكيمىائى للكائن الحى . وتسمى هذه القوى بالغرائز . وهى الطاقة التى تصدر عنها جميع ظواهر الحياة ثم نسب الى الكبت الجذسى كل الأمراض النفسية التى يصاب بها الانسان . ودعا الى تحرير غريزة الجنس من قيود الدين وتقاليد المجتمع . ولقد وافقت دعوته هذه هوى فى نفوس الشعوب الغربية التى ضجبت من الكبت الذى فرضته العقيدة الدينية وأسبغت عليه الكنيسة حمايتها . كما صادفت هوى فى نفوس شبابها خصوصا بعد الحرب العالمية الاولى .

ويتعاون مع فرويد على تدمير القيم الانسانية فى المجتمعات الغربية علماء الاجتماع الذين قال بعضهم عن الأسرة انها ليست اصلا من اصول حياة الانسان بحيث يمكن أن يلفظها المجتمع فى أى وقت دون أن يخشى خطرا يهدده أو يعوق مسيرته وتقدمه وتقال بعضهم الآخر انها ضرورة اقتصادية كانت قائمة بتملك الرجل وسائل الانتاج واضطرار المرأة الى الاعتماد عليه فى إعالتها وإلى الاستسلام لأنانيته . فاذا تغيرت الأوضاع الاقتصادية وشاركت المرأة فى ملكية وسائل الانتاج لم تعد بها حاجة الى الاعتماد على الرجل ولم تعد بالمجتمع حاجة الى الأسرة . هذا فضلا عن أن الاقتصاديين يعرفون العمل بأنه كل جهد أو نشاط فى عالم البالغين ينال الشخص فى مقابله أجرا ماليا أو جزاء ماديا . وبذلك يخرجون من عداد القوى العاملة ربات البيوت .

وفى أحضان هذه المفاهيم ترعرعت حركة تحرير المرأة الغربية وشقت طريقها نحو أهدافها وسارت فيه بخطى واسعة الى غايته حيث المساواة المنشودة بالرجل . المساواة به فى الحقوق السياسية والحقوق الاجتماعية . وتفككت الروابط الأسرية الى درجة أثارت فزع بعض العلماء على مستقبل المجتمعات البشرية . بيد أن البعض الآخر يرى أن الأسرة لم تتفكك ولكنها تمكنت من تطوير نفسها

والسير بعلاقاتها نحو طراز جديد يمتاز بالزمالة أو الصحبة الأسرية كما يمتاز بالضبط الداخلى وذلك بدلا من العلاقات الأمرة أو المسيطرة ، وقد اطلقوا على الأسرة التى تسودها هذه العلاقات اسم « أسرة الصحبة » ويميزها عن الأسرة التقليدية روح الديمقراطية التى تسودها والحرية التى يتمتع بها أعضاؤها كما يميزها تغيير كبير فى مركز وعلاقة الزوج والزوجة نتيجة للتغيير فى الأساس الاقتصادى الذى تقوم عليه بسبب خروج المرأة للعمل وشعورها بالاستقلال والمساواة والتغيير فى سلطة الرجل التقليدية الذى جعل العلاقات داخل الأسرة تقوم على التفاهم والزمالة والتعاون . ويصبح البيت بالنسبة لأسرة الصحبة مكانا يلتقى فيه الزوجان والأبناء للنوم .

نخلص من هذا الى القول بأن مفهوم تحرير المرأة بمعناه الغربى هو مساواتها بالرجل من حيث حقه فى العمل السياسى والاقتصادى والاجتماعى والى تأكيد أن عملها التقليدى الذى مارسه عبر آلاف من السنين والمتمثل فى ادوار الزوجة والأم وربة البيت لا يعتبر عملا مستأهلا تخصصها فيه وتفرغها له لأن العمل عندهم كما ذكرنا هو كل جهد أو نشاط ينال صاحبه فى مقابله اجرا .

* * *

ثانيا : المفهوم الاسلامى

كانت علاقة الرجل بالمرأة محكومة عبر تاريخها الطويل بأمرين : تفوق الرجل الجسمانى واسطورة دينية اثارته اليها التوراة تلقى على حواء مسئولية طرد آدم من الجنة لا يزال الكثير من بنى الانسان يعتقدون بصحتها على الرغم من أن القرآن الكريم دحضها ولذلك كانت نعمة الرجل تحل بالمرأة كلما تكاثرت عليه

متاعب الحياة أو تعاضلت مخاطرها وقد تعرضت المرأة بسبب هذين الأمرين لمظالم كثيرة في كل الشعوب المتدينة . أما المجتمعات التي لا تعرف شيئا عن أسطورة الطرد من الجنة فقد كان تفوق الرجل وحده سيد العلاقة فيما بينه وبين المرأة .

فلما جاء الاسلام ليرشد الانسان الى أسلوب الحياة الأمثل وليعلمه السلوك الذى يكفل له تحقيق رسالته على الأرض كانت علاقة الرجل بالمرأة وتنظيمها من أعظم اهتماماته . وحين نتأمل المبادئ التى أقام الاسلام عليها هذه العلاقة لا يثير دهشتنا غناؤها بالجمال والكمال لأننا نعلم انها من صنع مبدع هذا الكون العظيم سبحانه جل شأنه . فنرى فى البداية اهتمامه بالكشف عن فساد تلك الأسطورة الدينية . ثم نرى اهتمامه بترويض تفوق الرجل الجسمانى حتى لا ينحرف به لغير ما خصص له . ونرى أخيرا كيف جعل عمارة الأرض قسمة عادلة بينهما .

(١) فساد الأسطورة الدينية :

يتجلى اهتمام الاسلام فى الكشف عن فساد تلك الأسطورة واثبات براءة حواء من مسئولية الطرد من الجنة فى قوله تبارك وتعالى :

« ويا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » الأعراف ١٩ — ٢٠ .

هنا يوضح القرآن الكريم أن ابليس وسوس لآدم وحواء معا وأن الوسوسة لم تكن لحواء وحدها مما يقطع بأن المسئولية واقعة على الاثنين . ومع ذلك فأتى أن المسئولية عن الخروج

من الجنة غير موجودة أصلا . أما المسئولية عن مخالفته أمر الله بالاكل من الشجرة فتأثمه وان كانت قد انمحت بالتوبة والمغفرة . وانعدام المسئولية عن الخروج من الجنة يتضح من قول الله تبارك وتعالى :

« واذا قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون » البقرة ٣٠ .

فهذه الآية الكريمة تبين أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم ليستخلفه فى الأرض وهذا يعنى أن السكن فى الجنة لا يمكن أن تكون له صفة الدوام . بل هو حالة عارضة مؤقتة بتحقيق الحكمة من تقريره . هذه الحكمة يمكن استخلاصها من قول الله تعالى :

« واقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ام يكن من الساجدين . قال ما منعك الا تسجد اذ امرتك قال انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج اناك من الصاغرين قال انظرنى الى يوم يسعون قال اناك من المتظرين . قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذعوما مدحورا . لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فكلوا من الظالمين » الأعراف ١١ — ١٩ .

ويمكن ترتيب وقائع هذه الآيات الكريمة على النحو التالى :

١ — تحول ابليس بعد أن عصى ربه الى عدو مبين لآدم . فأنذره
كان خلق آدم نذير هلاكه اذ طرد من رحمة ربه .

٢ — طلب ابليس من ربه ان يمد في عمره الى يوم البعث العظيم فاستجاب له .

٣ — لما اطمأن ابليس الى ان الله سبحانه وتعالى استجاب لدعائه صرح بما سيكون عليه سلوكه مع آدم وذريته « قال فيما اغويتنى » .

٤ — عقب هذا التهديد مباشرة صدر امر الهى الى آدم يقول : « ويا آدم اسكن انت وزوجك الجنة » .

وفي اعتقادي ان هذا الأمر من مقتضيات العدل الالهى لانه يتيح لآدم وزوجه ان يعيشا في تجربة يأخذان منها فكرة عن قدرة هذا العدو الخطير الذى سيعايشهما على الأرض . ويتعلمان منها بعض أساليبه في تزيين الباطل . حتى اذا نزلا الى الأرض وبدأت عليها رسالتهما كانا على بينة من أمر عدوهما اللدود .

فالسكن في الجنة كان موقوتا ولا ريب . وكانت حكمته ذلك الدرس الذى يعتبر بحق أثرا خالدا من آثار العدل والرحمة الالهيين . ولذلك نرى القرآن الكريم يذكر ذرية آدم به في قول الله تبارك وتعالى :

« يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج ابويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءتهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون »
الأعراف ٢٧ .

(٢) ترويض التفوق الجسمانى :

تفوق الرجل في الجسم احدث على مر السنين اوضاعا في العلاقة بينه وبين المرأة لا يقرها عقل سليم ولا شرع قويم .

وتاريخ الشعوب حافل بأخبار الأوضاع المهيئة التي كانت مفروضة قبل الاسلام على حياة المرأة في المجتمعات الشرقية والمجتمعات الغربية على السواء .

ولقد قضى الاسلام على تلك الأوضاع بأحكامه العادلة التي قررها لتنظيم علاقة الرجل بالمرأة وبمبادئه التي تكفلت بترويض التفوق الجسماني حتى لا يضل ويستغل في غير غايته المشروعة .

كان أسوأ ما وجده الاسلام في مجتمع شبه الجزيرة العربية وربما في سائر المجتمعات البشرية عادة واد البنات وقد كانت وسيلتهم السهلة لتوقى العار أو الفقر أو هما معا ولقد رقص الاسلام هذه الوسيلة الباغية الظالمة ونهى عن تلك العادة الوحشية . اذ قال الله في قرآنه المجيد :

« واذا بشر احدكم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون أم يدسه في التراب . ألا ساء ما يحكمون » النحل ٥٨ — ٥٩ .

« واذا الموءودة سئلت . بأي ذنب قتلت » التكوين ٨ — ٩ .

ثم يضع ضوابط المساوك التي تكفل حماية الأنثى من الانحراف والتي تكفل الحفاظ على كرامة الفقراء . أما عن حمايتها من الانحراف والحفاظ على طهرها وكرامتها فكان بتحريم ظهورها في النوادي والمحافل والمجتمعات العامة وباعد بينها وبين ما يريب او يبعث على الفتنة وحرم عليها أن تبدى زينتها . يقول الله تبارك وتعالى :

« وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى واقمن الصلاة وآتين الزكاة واطعن الله ورسوله » الأحزاب ٣٣ .

« وقل المؤمنات يفضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن

ولا يبدن زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخبرهن على جنوبين
ولا يبدن زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو أبناء بعولتهن أو أبناء
أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن
أو ماملكت إيمانهن أو التابعين غير أولى الأربة من الرجال أو الطفل
الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين
من زينتهن ((النور ٣١ .

((يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين
عليهن من جلابيبهن)) الأحزاب ٥٩ .

ومن اتوال الرسول صلى الله عليه وسلم :

— ((لا يخلون رجل بامرأة الا ذى حرمة)) (١) .

— ((ما اجتمع رجل وامرأة الا كان ثالثهما الشيطان)) (٢) .

وأما عن حفاظه على كرامة الفقراء فكان بتقريره مبدأ الزكاة
وجعله ركنا من أركان الاسلام الخمسة واعتباره حقا للفقير في مال
الفنى . يقول الله تبارك وتعالى :

((واقموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير
تجدوه عند الله)) البقرة ١١٠ .

((فأت ذاك القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير
الذين يريدون وجه الله)) الروم ٣٨ .

((والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم))
المعارج ٢٤ — ٢٥ .

وليس هنا بطبيعة الحال مجال لوضع صورة كاملة أمام
القارئ وإنما هى إشارة يفرضها البحث لبيان عظمة التشريع

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى .

(٢) رواه الترمذى وابن حنبل .

وكماله . ثم نتابع بعض آى الذكر الحكيم الذى استهدف ترويض قوة الرجل حتى لا يعود الى بطشه بالمرأة وظلمه لها . يقول اصدق القائلين :

١ — « ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة . ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »
الروم ٢١ .

يقرر القرآن الكريم فى هذه الآية الكريمة ان المرأة قطعة من الرجل أى من نفس معدنه وأن من وظائفها فى الحياة ان تكون سكنا له يجد عندها راحة نفسه واطمئنان قلبه وهدوء باله . فلا ينبغى له ان يستعلى عليها او ييطش بها . بل يجب ان تحكم المودة والرحمة العلاقة بينهما .

٢ — « وان اردتم استبدال زوج مكان زوج واتيمم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا . اتأخذونه بهتانا واثما مبينا »
النساء ٢٠ .

٣ — « وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » النساء ١٩ .

٤ — « الطلاق مرتان فامسك بمرءى او تسريح باحسان . ولا يحل لكم ان تأخذوا مما آتيتهموهن شيئا الا ان يقيما حدود الله »
البقرة ٢٩ .

فماذا تكون يا ترى الحكمة من هذا الاهتمام الشديد بترويض قوة الرجل وسد طريقها الى الغلظة والفظافة ؟

ان عمارة الأرض — وهى رسالة الانسان — محتاجة الى كل طاقات الرجل والمرأة فلا ينبغى لهما ان يبددا شيئا منها فى صراع بينهما . بل يجب ان تكون السماحة والايثار دستور التعامل بينهما . ويجب ان يقوم بينهما تعاون كامل نظيف من كل صور الأثرة والاستعلاء .

(م ٣ — حركة تحرير المرأة)

(٣) القسمة العادلة :

أما كيف جعل الإسلام عمارة الأرض قسمة عادلة بين الرجل والمرأة فنعرفها من الهيئة التي خلق الله سبحانه وتعالى عليها كلا من الرجل والمرأة . والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » (١) .

ونحن اليوم — بما أحرزنا من تقدم في العلوم — أقدر على معرفة الهيئتين وأدراك ما بينهما من اختلاف وأدراك حكمته التي لا يمكن أن تكون غير تحديد الدور الذي يجب أن يقوم به الرجل والدور الذي يجب أن تقوم به المرأة .

وكان الدور الذي قام به الرجل والذي هدته اليه فطرته وغرضتها عليه هو العمل خارج البيت . أما دور المرأة فكان العمل في البيت . ولولا الفطرة لما قبل الرجل تعريض حياته لمخاطر العمل خارج البيت حيث كان عليه أن يجوب الوديان ويقتحم الغابات ويتسلق شعاب الجبال بحثا عما يحفظ عليه هو وزوجه وأولاده الحياة . بل لاستغل قوته وأكره زوجه على مواجهة تلك المخاطر ولأثر السلامة بالبقاء في البيت . ولكن الله سبحانه وتعالى خلقه قويا شجاعا شهما ليحمل قدرا من المسؤولية أكبر وأخطر بل أن الله جل جلاله حباه أيضا بحظ أوفر في العقل لتكتمل فيه متطلبات مسؤوليته .

وما أحسب التفوق الجسماني للرجل في حاجة الى دليل فهو ظاهرة مادية ملموسة اُثبتت وجودها عبر تاريخ البشرية الطويل . أما التفوق العقلي فلأنه ظاهرة غير مادية قد جحدته كثيرون وشكك فيه كثيرون استنادا الى تفوق أحرزه بعض النسوة في مجالات علمية مختلفة مع أنه لا يعدو أن يكون استثناء من قاعدة عامة .

(١) رواه البخارى ومسلم .

وتفوق عقل الرجل على عقل المرأة يشهد عليه القرآن الكريم
كها تشهد عليه البحوث والدراسات العلمية :
فمن القرآن الكريم نستشهد بهذه الآيات البينات يقول عز
من قائل :

**« واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل
وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل أحدهما فتذكر
أحدهما الأخرى ولا ياب الشهداء إذا ما دعوا »** البقرة ٢٨٢ .
والشهادة إعادة لوقائع شوهدت وأقوال سمعت واستيعاب
المشاهد وحفظ الأقوال وظيفه من وظائف العقل . والقرآن يؤكد
هنا أن قدرة العقل البشرى على الاستيعاب والحفظ والاعادة
الدقيقة هي في المرأة أقل منها في الرجل . وعبرة « أن تضل »
الواردة في الآية الكريمة تعنى النسيان الذى هو نوع من أنواع
القصور في العقل . ويفسرهما الشيخ محمد رشيد رضا في المنار
« بالخطأ والضياغ وعدم الاهتداء » .

وهذه هي الحالة الوحيدة التى أجاز فيها القرآن الكريم
شهادة المرأة . أما الآيات الأخرى فقد قصرتها على شهادة الرجل .
يقول الله تعالى :

**« يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت
حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم
ضربتم في الأرض فامضوا بكم مصيبة الموت »** المائدة ١٠٦ .
**« واللاتى ياتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن
أربعة منكم فإن شهدوا فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت
أو يجعل الله لهن سبيلا »** النساء ١٥ .
**« فإذا بلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف
واشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله »** الطلاق : ١٢ (١) .

(١) باب الشهادة في كتب الفقه مبسوط تحت نفس العنوان
فليرجع اليه من شاء الاستزادة .

اما البحوث العلمية فنذكرها هنا لا تأييدا لما جاء في القرآن الكريم من اثبات التفوق العقلى للرجل على المرأة . ولكن لأننا نؤمن أن من أهم وظائف العلم مساعدة العقل البشرى على ادراك الحقائق القرآنية أو مزيد من الفهم لها . وهى حقائق يؤمن بها المسلمون ذوو الفطرة السليمة ويزداد ايمانهم بها رسوخا كلما تقدم العلم ونجح فى اكتشاف أسرار الكون . ونذكرها هنا أيضا لقطع السبيل على هؤلاء الذين لا يؤمنون الا بالعلم والأدلة العقلية .

نشرت مجلة العلم والمجتمع التى تصدر بالعربية عن مجلة رسالة أليونسكو فى عدد ديسمبر سنة ١٩٧١ بحثين عن المرأة . أحدهما بعنوان « النساء فى مجال العلوم » للدكتورة كاتلين لونزديل . والثانى بعنوان « القدرة العقلية للمرأة ومتطلبات العلم » للدكتورة اليانور ا . ماكوبى . وهما كما هو واضح خلاصة جهد امرأتين متفوقتين وليس من دراسات الرجل حتى يمكن الطعن فى نزاهتهما . وسنعرضها بايجاز فيما يلى :



البحث الأول — النساء فى مجال العلوم :

تقول صاحبة البحث ان الثمة فى مجال العلوم لا يدركها الا عدد قليل من النساء وتؤيد هذه الحقيقة بالأحصائيات . ومن أهم ما ورد فى البحث :

١ — قال عالم فسيولوجى انه بالرغم من ان الجدل لا يزال قائما حول هل مخ الأنثى من قوة الفكر بمثل ما عليه مخ الذكر فانه مقتنع مع ذلك بأنه لو دربت عقول الاناث تدريبا منتظما منسقا لقلت الأمراض بين نساء الطبقات العليا .

٢ - فى ١٢ مارس سنة ١٩٤٥ تم انتخاب صاحبة البحث ومارجورى ستيفنسون لعضوية الجمعية الملكية بلندن ومنذ ذلك الوقت لم تنتخب عادة أكثر من امرأة واحدة كل عام بالمقارنة بخمسة وعشرين أو خمسة وثلاثين رجلا . وحتى هذه النسبة - أى اختيار امرأة واحدة - تعتبر عالية اذا قورنت بالنسبة فى بعض الجامعات العلمية الوطنية الأخرى ...

ولا يستطيع احد - هكذا تقول صاحبة البحث - حتى اشد انصار المرأة أن يدعى أن هذا يرجع الى التمييز ضد الجنس . الواقع أنه لا يبلغ كثير من النساء مراكز القمة فى البحث العلمى بحيث تتوفر لهن شروط التأهيل اللازمة للترشيح للزمالة .

٣ - حوالى ٩٠ ٪ من الفتيات يتزوجن وينجبن أطفالا . وحوالى ثلث هؤلاء النساء المتزوجات سوف يرتبطن بعمل كامل أو جزئى خارج بيوتهن يتقاضين عليه أجرا وأنه ليصعب جدا الحصول على أية مساعدة فى الخدمات المنزلية وبالتالي فالقيام بعملين فى وقت واحد وآداؤهما كليهما اداء حسنا يستلزم درجة غير عادية من التصميم والقدرة التنظيمية . ولا يتحتم أن تتلائم هذه السمات بالضرورة مع القدرة الفطرية على التفوق فى الرياضة أو الفيزياء ..

اما المرأة العزبة فكثيرا ما يحدث أن تقع على عاتقها مسئولية العناية بأحد الوالدين فى شيخوخته فى حين أنها هى تتقدم فى العمر ويصعب التوفيق بين هذا وبين عمل يستدعى صفاء الفكر فضلا عن قدر من الوقت الزائد عن المقرر لكى يتسنى مباشرته على مستوى المسئولية التى تصاحب الأعمال ذات المرتبات العالية . فليس من الأمور التى تثير الدهشة مطلقا أن يكون عدد النساء اللاتى ينجزن مثل هذه المسئولية بل يرغبن فيها عددا صغيرا .



البحث الثاني — القدرة العقلية للمرأة ومتطلبات العلم :

تقول المجلة ان صاحبة هذا البحث لها بحوث عديدة في علم النفس الاجتماعى وتنشئة الطفل والاختلافات بين الجنسين . ويمكن تلخيص بحثها هذا فى النقاط التالية :

١ — ترجع أسباب الضعف النسبى لمستوى الانتاج العقلى للنساء الى ان الدور الاجتماعى للمرأة لا يتناسب مع الحياة العلمية اذا قورن بدور الرجل . فانه من الصعب على المرأة ان تتفرغ ذهنيا لمتابعة بحث علمى فى مجال من المجالات وهى تقوم بدورها كزوجة وام على الوجه الاكمل . ان ذلك فى الواقع اصعب بكثير من ان يقوم الرجل بنشاط علمى وذهنى ويقوم مع ذلك بدوره كزوج واب على الوجه الاكمل . كذلك فان الانتاج العلمى للحاصلات على درجة الدكتوراه لم يكشف عن تفوق غير المتزوجات اللائى يماثلن الرجال من حيث عدم الانشغال بمسئوليات غير مهنية تضيع عليهن بعض الوقت وقد ثبت ان هناك عوامل تؤثر تأثيرا كبيرا على نشاطهن وبالتالي على انتاجهن العقلى . وقد تكون هذه العوامل هى المعاناة من مشاعر خاصة معوقة او عدم وجود الدافع الايجابى الذى يحقق الانتاج الأمثل .

٢ — دراسة الانتاج العقلى للمرأة فى مراحل عمرها تحمل على الاعتقاد بأن مسئوليات الزواج والاطفال وما تتطلبه من وقت ليست السبب فى قصور انتاجها العقلى . اذ ان قصور قدراتها العقلية — يبدو بوضوح ويظهر تلقائيا قبل الزواج ويستمر هذا القصور عندها حتى غيما بين الخامسة والثلاثين والخامسة والستين من عمرها حين تكون المسئوليات الملحة الخاصة بتربية الاطفال فى العادة قد انتهت . بينما يبلغ الرجل فى هذه الفترة من العمر اقصى درجات الانتاج العقلى فى مجال تخصصه .

٣ - أن البنسات ينظرن الى الأشياء نظرة عامة شاملة غير تحليلية . وتقول الدكتوراة اليانور انه من الطريف أن البحوث العلمية التى أجريت فى ثقافات مختلفة تمتد من أوروبا الغربية حتى هونج كونج أثبتت ميل النساء والبنات الى الاعتماد على النظرة الشاملة العامة للمواقف أكثر من ميلهن الى النظرة التحليلية .

٤ - هناك نوع خاص من الاختبارات به مسائل قننت لاختبار قدرة الفرد على الانتقال الذهنى من قاعدة فكرية مستعملة فى الحال الى قاعدة أخرى يستنبطها الفرد ويستدعى الموقف تشكيلها لمحاولة حل المشكلة بأسلوب جديد . وقد ثبت أن قدرات الرجال على أساس مثل هذه الاختبارات تفوق قدرات النساء .

٥ - فى مجال القدرة على التحصيل تقول الباحثة ان البنات يحصلن على درجات أحسن من درجات الأولاد خلال سنوات الدراسة حتى فى المواد التى يحصل فيها الأولاد على تقديرات أعلى فى اختبارات التحصيل المقتنة . أما فى سن الرشد بعد التخرج من المدرسة فإن الرجال يحرزون نجاحا يفوق نجاح النساء فى أى مجال من مجالات النشاط العقلى تقريبا خصوصا الذى يمكن التحصيل فيه كتأليف الكتب وكتابة المقالات والانتاج الفنى والانتاجات العلمية . وقد أظهرت إحدى الدراسات الطويلة المدى التى تتبع بعض الأطفال الموهوبين أن الذكور منهم ينزعون فى الكبر الى تحقيق إمكاناتهم وطاقاتهم الكامنة فى مهمتهم وفى الانتاج المبدع فى حين أن الإناث الموهوبات لم يحدث منهن مثل ذلك .

٦ - الخصائص التى تقترن بارتفاع معدل الذكاء ليست صفات أنثوية . وقد سئل أحد المشتركين فى الدراسة التى أجريت فى معهد (فلز) عن تاريخ وصفات النمو الواجب توافرها لكى تصبح طفلة ما شخصا يتمتع بالقدرات العقلية . فأجاب بأن أسهل رد

يمكن الإجابة عن هذا السؤال هو أن تكون الفتاة متصفة بصفات الأولاد فى فترة من فترات حياتها .

٧ — تقول الباحثة أن (بلانك) قام بدراسة عن قصص حياة بعض شهيرات النساء فى العلوم الرياضية اللاتى كتبهنها بأنفسهن . وقد اظهرت هذه الدراسة أن هؤلاء السيدات المتخصصات فى الرياضيات يشتركن فى ظاهرة هامة . فكل منهن أشارت فيما كتبت عن نفسها الى صلة تعلق قوية لدرجة غير عادية بأبيها فى مرحلة الطفولة اكبر بكثير من تعلقها بأُمها . كما اشرن الى أنهن حاولن تشكيل أنفسهن على شاكلة الآباء لا الأمهات .

٨ — اذا نجحت فتاة خلال سنى طفولتها فى أن تحتفظ بصفات النزوع الى السيطرة والاستقلال والكفاح بجد . وكلها صفات أساسية للتفكير التحليلى الجيد . فان هذا سيكون تحديا منها للعرف السائد لما يجب أن يكون عليه سلوك الفتاة . وبالرغم من أنها قد تنجح فى ذلك بطرق عديدة فان المعتقد انه ما من امرأة مفكرة لها قدرات عقلية ممتازة الا دفعت ثمن ذلك فى المعاناة من القلق النفسى . والقلق له اضرار أهمها تأثيره على حياتها العاطفية وعلى شخصيتها . كما يمكن أن تكون له آثار ضارة بنشاطها العقلى أو الفكرى . بل انه مدمر للتفكير الخلاق .

٩ — وفى النهاية تقول الدكتورة اليانور ان ما سبق بيانه يبدو مروعا لمن يريد للنساء أن يصبحن مفكرات لهن قدرات عقلية خلاقة . بل يبدو أيضا أنه حتى لو كانت امرأة موهوبة ذهنيا ونجحت فى تنمية المزاج المناسب والعادات الفكرية التى تجعلها تستفيد من هذه الموهبة فانه يجب عليها أن تكون جريئة شجاعة القلب ليتمكنها أن تتناوم ضغوط المجتمع من غير أن تتحطم ويمكنها أن تمارس نشاطها الفكرى وهى سعيدة .

ولعل من الواضح أن الدكتور الياور - وقد عرضت في بحثها هذا الكثير من التجارب والدراسات التي تؤكد امتياز الرجل على المرأة في الانتاج العقلي المبدع - تتهرب من الاعتراف بفطرية السبب وتفضل رده الى ما تفرضه الأئوثة على المرأة من واجبات اجتماعية واقتصادية . ولذلك نراها تدعو الموهوبات الى الانطلاق من قيود المجتمع الذي تعيش فيه والتحرر من تقاليده حتى لا تخبو جذوة الموهبة التي تألقت فيها . وفي ظنى أن صاحبة البحث تطلب المستحيل لأن الانسان الذي لا يحفل بالمجتمع الذي يعيش فيه يوصف بالاستهتار ويفقد احترام الناس له . وذلك أمر لا تقدم عليه امرأة تحترم نفسها .

ونضيف الى هذين البحثين بحثا ثالثا اطلعنا عليه في العدد الذى صدر يوم ٧ مايو سنة ١٩٧١ من صحيفة الاهرام وهو عبارة عن تلخيص لكتاب « بين الرجال » لعالم الاجتماع الكندى « لا يونيل تايجر » الذى يرى أن العالم سيظل حتى الغد البعيد « عالم رجال » كل شىء يحدث ويدور فيه بين الرجال . وستظل المرأة اقلية مثل الزنوج .

ويقول هذا العالم فى كتابه :

« ان التقسيم والتفرقة والتمييز فى العمل بين الجنسين ظاهرة جامدة لأنها مبنية على معتقدات ومحرمات تعارض حدوث أى تغيير فيها . وتمتد جذور هذه الظاهرة بعمق فى طبيعة الحياة الاجتماعية للكائن البشرى . ففى جميع الحضارات نجد أن صيد الحيوان أو السمك وصناعة الأدوات وصناعة التعدين وصناعة الأسلحة وغيرها أعمال من اختصاص الرجل فقط . أما المرأة فتقوم بأعمال الزراعة المجيدة وتمارس الفلاحة وتحمل الماء رغم أنه يتطلب مجهودا أكبر من بناء زوارق الصيد مثلا . علاوة على قيامها بالشئون المنزلية من اعداد الطعام وحياسة الملابس وغير ذلك . وهذا التوزيع

بين الجنسين في الاعباء يثير الاهتمام لانه يوحى بأن جميع المجتمعات شعرت بأن التمييز في العمل بين الرجل والمرأة ضرورة .

« باختصار فان الرجال الذين يكونون مجموعات صيد رجالية بحثة كانوا متفوقين في حياتهم وفي نسلهم . بينما الجماعات التي تسمح للنساء بمشاركتها في الصيد كانت تقل فرصتها في البقاء وربما يكون هذا هو احد الأسس التي خلقت ووطدت الرباط بين الرجل والرجل . واذا نظرنا الى الجماعة في مجموعها فلم يكن من مصلحتها مشاركة النساء في ممارسة الصيد لانه في حالة الحمل من الممكن ان يحصل اجهاض كما ان المرأة معرضة لأن تخرج او تقتل ولذلك فان النساء اللاتي كانت حياتهن مقصورة على الاهتمام بالأطفال وجمع الحبوب والنباتات وأنواع النشاط المتعلقة بصيانة البيت كانت فرصهن في التناسل اكبر من النساء اللاتي كن يعملن في الصيد . ولو كان الحال هكذا فانه يفسر لنا المعارضة شبيهة الجماعية في بعض الدول لعمل المرأة خارج البيت . وخاصة تلك التي لديها اطفال في سن صغيرة . كما قد يفسر لنا موقفنا قريبا من هذا : احتقار النساء الجماعى للنساء اللاتي لم ينجبن أطفالا سواء اكان هذا الاحتقار يتخذ الشكل الكاريكا تورى للعانس الجافة بل والمجففة في الثقافات الأوروبية والأمريكية او صورة المرأة العقيم في افريقيا وآسيا .

« وتوجد نسخة معاصرة تترجم عدم قدرة السيدات على الانجاب . وهى تتمثل في النساء اللاتي يشغلن مناصب هامة في مجال الاعمال المهنية . غنى امريكا الشمالية نجد ان ثلث العاملات في الكادرات النسائية غير متزوجات كما ان المتزوجات يملن عادة الى انجاب اقل عدد ممكن من الأطفال أو حتى الاستغناء عنهم تماما . وقد نرى في هذا الموقف صورة معاصرة للسباق التاريخي الذي ساعد على البقاء أو المبالغة في السلوك الناتجة عن الفرق الجسماني بين الجنسين .

« ونلاحظ نحن أن النساء اللأئي يتبنون مراكز هامة في المجال السياسي يعود الفضل في هذا الامتياز الذى حصلن عليه الى علاقة قرابة وثيقة وتعاون مع رجل سياسى توفى . ومن الأمثلة على ذلك السيدة سريمافو بندرانايكا أرملة رئيس وزراء سيلان وأنديرا غاندى ابنة الزعيم الهندى نهرو وأرملة سونى بات سن البطل الثورى الصينى ومسز الينون روزفلت أرملة الرئيس الأمريكى . وإذا القينا نظرة سريعة على الحياة السياسية فى كندا فسوف نجد شيئا غريبا وطريفا . وهو اذا رشحت أرملة نفسها للمقعد الذى خلا بوفاة زوجها فى الانتخابات الفيدرالية الجزئية تكون واثقة ١٠٠ ٪ من الفوز به . واحد أسباب تعيين الأرامل فى المراكز الهامة يعود بلا شك الى الشعور بالعرفان والجميل الذى يشعر به زملاء الراحل للخدمات التى أداها فى حياته . وهناك أيضا سبب آخر وهو ان الخبرة التى اكتسبتها الأرملة طوال شغل زوجها لمنصبه الكبير وعلاقاتها بزملائه ربما قد لفتت انتباههم الى مواهبها السياسية .

« اننى سياسيا أعتقد أن زيادة مشاركة المرأة وزيادة تأثيرها فى المجال السياسى أمر مرغوب فيه . ولكنى كعالم اجتماع أخشى أن يكون من الصعب تحقيق ذلك . لأن المسألة ليست فى الحقيقة مشكلة بسيطة متعلقة بالتعليم والتحرر . وانما هى فى الواقع استعداد تمتد جذوره فى اللاشعور . ولابد من اعادة شاملة فى تكوين المجتمع السياسى حتى يمكن التغلب على هذه الصعوبات ... ان العالم سيظل فى الغد القريب والبعيد أيضا عالم رجال ان النساء لا يتحدن فيما بينهن . لا يوجد تضامن بين النساء . فالمرأة لا تثق بامرأة أخرى علاوة على أن المرأة اقتصاديا وجنسيا تعتمد كثيرا على الرجل لكى تظل مترابطة مع النساء الأخريات . فكل واحدة تفكر أولا وقبل كل شيء فى بقاء جماعتها الخاصة » .

لقد بينت كل من الدكتورة كاتلين لونز ديل والدكتورة ليانور ماكوبى دور العقل عند كل من الرجل والمرأة . وبين الاستاذ لايونيل

تايجر راي علم الاجتماع فيما يمكن تحقيقه من آمال المرأة المتطلعة الى المساواة الكاملة بالرجل . وعلم الاجتماع لا يعترف فيما يبدو من تفسيرات الاستاذ تايجر بالفطرة الانسانية . لاننا نلاحظ انه عبر عنها بقوله : « ان التقسيم والفرقة والتمييز في العمل بين الجنسين ظاهرة جامدة لأنها مبنية على معتقدات ومحرمات تعارض حدوث أى تغيير فيها . وتمتد جذور هذه الظاهرة بعمق في طبيعة الحياة الاجتماعية للكائن البشرى . »

ان الله سبحانه وتعالى خلقنا من ذكر واثنى ولا يمكن الزعم بأن الحكمة وراء ذلك هى التناسل لحفظ النوع واستمرار الحياة وحسب . والا فان الله عز وجل قادر على استخلاف انسان من جنس واحد يتناسل ويتكاثر من ذات نفسه . ومن ثم يجب الا نختلف على أن عمارة الأرض التى هى رسالة الانسان قسمة بين كل من الرجل والمرأة وأن القسمة يجب ان تكون عادلة وأن تستند عدالتها من قدرة كل منهما على ابداع حظه منها . ويجب أيضا الا نختلف على أن الله سبحانه وتعالى يسر للرجل الوظائف الأساسية ويسر المرأة للوظائف المساعدة . وعلى أنه قدم الرجل على المرأة وجعله قيما عليها واعطاه حق تأديبها والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم :

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض . وبما أنفقوا من أهوالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله . واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن . فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ان الله كان عليا كبيرا » النساء ٣٤ .

كذلك فان الله سبحانه وتعالى قد بين أن القيادة الرشيدة لا تكون الا فى ذوى الاجسام القوية (بصحة وشجاعة وقدرة على المغالبة) والعقول المستنيرة بالعلم والمعرفة فيقول وهو اصدق القائلين :

« وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا . قالوا
انى يكون له الملك علينا ونحن احق بالملك منه ولم يؤت سعة من
من المال . قال ان الله اصطافه عليكم وزاده بسطة في العلم
والجسم . والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم »
البقرة ٢٤٧ .

« قالت احدهما يا ابت استأجره ان خير من استأجرت القوي
الأمين » القصص ٢٦ .

فاذا اضفنا الى هذا ان الله سبحانه وتعالى لم يضع رسالته
في امرأة . لقوله تعالى : « وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحى
اليهم فاسالوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » النحل ٤٣ .

« وما ارسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم فاسالوا اهل الذكر
ان كنتم لا تعلمون » الانبياء ٧ .

ولم يجتمع ذكر الرجل والمرأة في آية من آيات الكتاب العظيم
الا تقدم ذكر الرجل . فالله سبحانه وتعالى يقول :

« ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب
مما اكتسبوا للنساء نصيب مما اكتسبن » النساء ٣٢ .

« الا المستضعفين من الرجال والنساء » النساء ٩٨ .

« ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم »
الفتح ٢٥ .

« يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق
منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » النساء ١ .

« وان كانوا اخوة رجالا ونساء فلذكر مثل حظ الانثيين »
النساء ١٧٦ .

نخلص من هذا الى القول بأن الله سبحانه وتعالى لم يخلق المرأة لتتقود سفينة الحياة وانما خلقها ميسرة لمساعدة ربان السفينة وامانتة على قيادتها بنجاح الى شاطئ الأمان . فإذا تطلعت الى مقعد القيادة وسعت اليه تكون ظالة لنفسها . وإذا نجحت في الوصول اليه تكون قد ظلمت ركاب السفينة .

ولا ينبغي أن نفهم أو نعتقد أن ما يقتضيه هذا التفوق من استئثار الرجل بالقيادة والرئاسة تفضيل له عند الله على المرأة . اننا اذن نرتكب خطأ كبيرا . بل هو التنظيم المحكم الدقيق والتوزيع السليم العادل للمسئوليات والواجبات . فيروى أن نساء المدينة بعثن بأسماء بنت يزيد الانصارية الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون اليه حرمانهن مشاركة الرجل في الجهاد والاستشهاد فقالت له :

« بأبى انت وأمى يا رسول الله أنا وافدة من النساء اليك وما من امرأة كانت في شرق أو غرب سمعت بمخرجي هذا أو لم تسمع الا وهى على مثل رأيي . ان الله بعثك الى الرجال والنساء فأمنّا بك واتبعناك . ونحن معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم وحاملات أولادكم . وانتم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج وأفضل من ذلك كله الجهاد في سبيل الله . وان الرجل منكم اذا خرج حاجا أو معتمرا أو مرابطا حفظنا لكم أموالكم وغزلنا لكم أثوابكم وربينا لكم أولادكم . أفما نشارككم في هذا الخير يا رسول الله » فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم :

« انصرفي يا أسماء واعلمي من وراءك من النساء أن حسن معاشره احداكن لزوجها وطلبها لمرضاته واتباعها لموافقته يعدل كل ماذكرت » (1) .

وهذا الحديث الشريف يشير الى الحقائق التالية :

(1) رواه البزار والطبراني .

١ - الاسلام يأخذ ببدا التخصص فالمرأة لها ما ذكرت
أسماء بنت يزيد الأنصارية والرجل له ما وراء ذلك .
ونضيف هنا قول الرسول عليه الصلاة والسلام :
« **اعملوا فكل ميسر لما خلق له** » وقد أثبتت تجربة
الانسان عبر تاريخه الطويل أن التخصص هو السبيل
الوحيد للاجادة والافتقان وأن الخروج عليه شطط
وضياع .

٢ - ان المفاضلة عند الله سبحانه وتعالى ليست في
نوعية العمل بل في أسلوب أدائه ولذلك قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم أن ثواب الأعمال التي تقوم
بها أسماء بنت يزيد وغيرها من نساء المدينة يعدل ثواب
الأعمال التي يقوم بها الرجل وفيها الجهاد والاستشهاد
في سبيل الله .

٣ - ان رياسة الأسرة حق للرجل ولا يجوز التمرد عليه .
وان على الزوجة أن تحسن معاشرة زوجها وتطلب
مرضاته . وقد بينا من قبل كيف أن الاسلام عمل على
ترشيد هذه الرياسة وحمايتها من نزوع النفس الى
التسلط والاستعلاء . وغاية هذه الموازنة خلق الجو
الصالح للعمل المبدع وللحياة الزوجية السعيدة .

وقد اقتضى كمال التشريع في الاسلام الا يجعل لولاية الرجل
على المرأة سلطانا على حق ملكية الزوجة . فقرر لها حرية كاملة
في أن تملك وأن تتصرف كيفما تشاء فيما تملك . بينما الزوجة في
أوربا محرومة من هذه الحرية ولا تستطيع أن تتصرف فيما تملك الا
بإذن زوجها مهما تفوقت عليه علما واجتماعا ومهما كان لها من
شأن وخطر بين قومها . كما أنها عند الزواج تضطر الى ترك
الانتساب الى قومها ، وتنسب الى قوم زوجها ، ويتغير لقبها وكنيتها
تبعاً لذلك .

الفصل الثالث

مفهوم تحرير المرأة في مصر

ما هو المفهوم الذى تأثرت به حركة تحرير المرأة في مصر وسارت على دربه ؟ أهو المفهوم الوطنى أم هو المفهوم الإسلامى ؟ لمعرفة الإجابة الصحيحة على هذا السؤال يجب الرجوع الى مصادر يقينية لا يرقى اليها شك ولا تقبل أدنى قدر من الجدل . وقد حصلت على ثلاثة منها أولها محاضرة السيدة هدى شعراوى التى ألقته في قاعة يورت التذكارية بدار الجامعة الأمريكية بالقاهرة يوم الجمعة ١٥/١١/١٩٣٥ والتى أشرت اليها في الفصل الأول — وثانيها : بعض مقالات وتعليقات نشرت في الصحف ، أما المصدر الثالث : فهو محضر « ندوة المرأة وأجهزة الاعلام » المنعقدة من الدورة الثانية للجنة المرأة العربية . ونوجز كلامها فيما يلى :

١ — محاضرة السيدة هدى شعراوى :

قالت السيدة هدى شعراوى في محاضرتها تلك :

« ولولا ان الخديو اسماعيل خشى من أن يحدث تطور المرأة السريع ضجة ومقاومة من رجال الدين في ذلك الوقت لأعطى المرأة المصرية في عهده ، حرية تفوق الحرية التى تتمتع بها الآن . ولنهضت البلاد الى الدرجة التى كان يصـبـو اليها من رقى وتمدين » (١) .

(١) رجال الدين تعبير غير اسلامى وصحته علماء الاسلام .

(م ٤ — حركة تحرير المرأة)

وقالت ايضا فى ختام محاضرتها :

« يستنتج مما تقدم أن المرأة الشرقية لم تنل شيئا من حقوقها الا عقب نهضة وطنية أو حركة فكرية لمعاونتها للرجال فيها حيث تظهر فى غضون ذلك التعاون قوتها الكامنة وتتجلى مواهبها الفطرية التى يجهلها الرجل متأثرا بصورة المرأة المشوهة التى طبعتها فى وهمه العصور المظلمة والتقاليد الجائرة . كما تحققنا أن كل أمة تشارك المرأة فيها الرجل اشتراكا عمليا هى أكثر الأمم نشاطا وإنتاجا لاستغلال نصفها الذى كان مشلولاً . ولما للمرأة من أثر فى بث روح الحماسة والغيرة بين أفراد الأمة » .

فتطور المرأة إذن كان يقاومه علماء الإسلام وهذا يعنى أنه لم يكن ملتزما بأحكام السواك الإسلامى ويعنى كذلك أن نهوض البلاد وتقدمها ورقبها مرتبط بهذا التطور غير الإسلامى .

والقول بأن كل أمة شاركت فيها المرأة الرجل مشاركة عملية تضاعف نشاطها وإنتاجها لاستغلال نصفها الذى كان مشلولاً يعنى أن هدف تحرير المرأة العمل جنباً إلى جنب مع الرجل ورفض القيمة الخالدة لأدوار الزوجية والأمومة وإدارة اقتصاد الأسرة .

٢ — مقالات وتعليقات الصحف :

(١) فى حديث لادكتورة عائشة راتب وزيرة الشؤون الاجتماعية نشرته الأهرام يوم ١٣/١١/١٩٧١ قالت :

« تحرير المرأة يعنى أن يخلق المجتمع فيها الاحساس الذاتى بالمسئولية تجاه عملها وبيتها ووطنها . كذلك تحرير المرأة يعنى أن توجد فيها القدرة على التفرقة بين كونها امرأة وامرأة عاملة »

وقالت عن مظهر التحرر الذى تقصده :

« أن تصل المرأة الى أن تسهم فى أعمال لم يكن متصوراً أن

تسهم فيها من قبل . مثلاً عندما زرت الاتحاد السوفيتي وجدت النساء هناك يقمن بكل الأعمال حتى تقليم الأشجار وفي يوغوسلافيا وجدتهن يشاركن حتى في بناء الكبارى والعمارات . هذه هي المشاركة التامة في الحياة العملية التي تثبت أن المرأة في تلك البلاد متحررة . ومعنى التحرر اليوم ليس هو المعنى القديم لسنوات الأربعينات والخمسينات . وإنما يعنى أن تتخلص المرأة من كافة القيم القديمة والعادات البالية لتستطيع أن تنطلق مع العصر الحضارى الحالى الى أبعد ما تستطيع أن تنطلق . والمرأة العربية اليوم عليها أن تثبت أنها جديرة بأن تكون والا فلن تكون » .

يمكن أن نستخلص من حديث الدكتورة عائشة راتب الحقائق الآتية :

١ — أن تحرير المرأة يعنى انفساح المجال امامها لتحمل قسطاً من المسؤولية عن العمل في مختلف القطاعات بالإضافة الى مسؤوليتها عن العمل في البيت مع تأكيد قدرتها على الموازنة بين المسؤوليتين .

٢ — أن مما يدعم تحرير المرأة اصرارها على مشاركة الرجل في الأعمال البدنية الصعبة مثل بناء الكبارى والعمارات وتقليم الأشجار .

٣ — أن تحرير المرأة يقتضى التخلص من كافة القيم القديمة والعادات البالية لأنها تعوق انطلاق المرأة مع العصر الحضارى الحالى الى أبعد ما تستطيع أن تنطلق .

ولعل أخطر ما في حديث وزيرة الشؤون الاجتماعية ربط تحرير المرأة في مصر بالتخلص من كافة القيم القديمة والعادات البالية . لأن تعبير كافة القيم القديمة ينصرف الى القيم الإسلامية التي عاشت في مجتمعنا منذ الفتح الإسلامى والتي حكمت بدرجات متفاوتة سلوكنا عبر قرون عديدة . أما العادات البالية فأعترف أن فيها ما يناقض

الدين وأن التخلص منها لا يكون الا بالقضاء على الامية الدينية .

ب - نشرت مجلة حواء في عددها الصادر في ١٩٧٣/٣/٣ تحت عنوان « بين التحرر والسيطرة » مقالا ترد فيه على مواطن موظف جامعي كتب للمجلة يقص عليها كيف تحولت زوجته المثقفة المتفاهمة المتساهلة في كثير من الأحيان الى السيطرة والاستبداد والتعسف - تقول المجلة في بداية المقال :

« التحرر بمعناه الاصيل الواسع هو غاية نضال المرأة - وهو ما كافحنا وما زلنا نكافح من أجل تحقيقه وأرساء قواعده السليمة . فبكل ما نملك من قوى نحارب عبودية المرأة وسيطرة الرجل التعسفية من أجل الوصول في النهاية الى بلورة العلاقة بين الرجل والمرأة على ضوء المفاهيم العصرية . وبما يكفل حقوقها الانسانية ويجعل لها كيانا له استقلاله واحترامه » .

وتقول المجلة في فقرة أخرى من المقال :

« فان تتحرر المرأة وتحصل على كافة حقوقها لا يعنى على الاطلاق أن تلعب في الحياة وفي العلاقات الخاصة نفس الدور الذي كان يلعبه الرجل . وأن ما نرمى اليه هو أن تظل المرأة محتفظة بطابعها الأنثوي حتى وهي تملك كل حقوقها . والمرأة السوية الشخصية مهما بلغت من العلم والثقافة والمركز ومهما تمكنت من حقوقها فهي تحرص كل الحرص على أن يكون لشريكها منزلة ورأى وأن يكون بحكم رجولته وقوته وشهامته المسئول والحامي والموجه الذي لا يقتل من شأنها ولا ينفي حقوقها أن تسترشد برأيه وأن تنفذ رغبته وأن تطلب معونته » .

والمجلة برأيها هذا تسعى أو تدعو الى موازنة في العلاقة بين المرأة المتحررة على النحو الذي أشارت اليه والرجل وهي موازنة صعبة وأن لم تكن مستحيلة . لأن هذا التوازن يتطلب عقولا مستنيرة

غاية ما تكون الاستثارة كما يتطلب دواعٍ منضبطة غاية ما يكون الانضباط أى أنه لا يستطيعه إلا الإنسان الكامل وهو غير موجود إلا فى خيال الفلاسفة .

٣ - ندوة المرأة وأجهزة الاعلام :

هذه الندوة نظمتها لجنة المرأة العربية - احدى نشاطات ادارة الشؤون الاجتماعية بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية - وقد انعقدت بالقاهرة بمقر الجامعة يوم الاثنين ٢٦/٢/١٩٧٣ وكان موضوع الندوة « نظرة المجتمع الى المرأة من خلال أجهزة الاعلام » .

وقد أعدت ادارة الشؤون الاجتماعية ورقة عمل للندوة من أهم ما جاء فيها :

١ - « لذلك فإن اثر أجهزة الاعلام فى تكوين عقيدة المجتمع تجاه امر معين أو تحديد نظراته الى قيم معينة امر غير منكور . بل ان أجهزة الاعلام قد أستطاعت مع تنوع أساليبها وتقدمها أن تفرض على المجتمع أوضاعا معينة وأن تحل الأفراد على اتخاذ موقف محدد حتى ولو كانوا فى الأصل غير راغبين فيه . أو كانت تقاليدهم وخلفياتهم الثقافية والاجتماعية تفرض عليهم اتخاذ مواقف أخرى ربما تكون مخالفة تماما لما أستطاعت أجهزة الاعلام أن تفرضه عليهم » .

ب - « فالمرأة ليست مجرد فئة من فئات المجتمع ولا هى عنصر من عناصره ولكنها تمثل نصف المجتمع وتعتبر مسئولة الى حد كبير عن تنشئة ورعاية نصفه الآخر أو هى مؤثرة على أقل تقدير فى مسلك هذا النصف الآخر وتصرفاته . حتى أنه لمن الممكن القول بشئ من

المبالغة بأن المرأة تمثل المجتمع بأكمله نصفه بالاصالة
والنصف الآخر بالوكالة » .

ج - « فإذا صورت المرأة دائما بأنها وراء كل انحراف - ولقد
كان هذا التصوير بنصفه وحرفه عنوانا ضخما في إحدى
الصحف اليومية - فإن المجتمع معذور إذا وقر لديه
اعتقاد بأن المرأة فعلا وراء كل انحراف . وإذا عالج
برنامج من أنجح برامج التليفزيون - استنادا الى
الاصرار عليه لسنوات طويلة - مشكلة العادات
والتقاليد وجعل المرأة فيه دائما مثالا صارخا للسفاهة
وسوء التصرف والتوبة العارضة التي لا تلبث أن
تنقض . فإن المجتمع ممثلا في جموع المشاهدين يمكن
أن يعتاد في يسر النظر الى المرأة على هذه الصورة .
وإذا ركزت العديد من المسلسلات الإذاعية على صورة
المرأة التي تتحكم في رجال القرية وتجعل منهم القتل
وتجار المخدرات فإن المستمع لابد وأن تغلب عليه
صورة المرأة على هذا النحو » .

وليس من شك في أن المرأة تشكل نصف المجتمع وأنها
مسئولة الى حد كبير عن تنشئة ورعاية نصفه الآخر ومؤثرة تأثيرا
كبيرا في مسلكه وتصرفاته . ومن ثم لا تكون ورقة العمل - وهي
تعترف بهذه الحقيقة - منصفة حين تعترض على أجهزة الاعلام
إذا عملت على وضع مسئولية المرأة في مكانها الصحيح . ولا يعنى
هذا اعتقادي في أن تلك الأجهزة تؤدي رسالتها أداء حسنا . وإنما
هو الإشارة الى تناقض كبير في فقرات ورقة العمل التي تضرب مثلا
بأحد البرامج القليلة الجيدة الهادفة وهو برنامج « عادات وتقاليد » .
فلا يهم عند واضع ورقة العمل أن يكون البرنامج جيدا وهادفا ولكن
المهم عندهم أن تكون صورة المرأة طيبة ومشرفة . وقد فاتهم أن

أجهزة الاعلام تهتم في أداء رسالتها بالرقابة والنقد أكثر من اهتمامها بالجيد من الأعمال . تلك طبيعة أجهزة الاعلام في المجتمعات النامية المثقلة أقدامها بقيود التخلف الاقتصادي والاجتماعي والفكري .

ولقد انعقدت الندوة في مساء الاثنين ٢٦/٢/١٩٧٣ برئاسة الدكتورة عائشة راتب وزيرة الشؤون الاجتماعية وحضور السيدات أعضاء لجنة المرأة العربية وبعض المدعويين على رأسهم الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله وزير الدولة للتخطيط وليس بينهم واحد من علماء المسلمين أو رجال الكنيسة وسنرى بعد قليل أن السبب في عدم دعوتهم للاشتراك في الحوار يرجع الى اعتبارهم اصحاب فكر رجعي متخلف .

والباحث في الكلمات التي القيت في الندوة عن مفهوم تحرير المرأة في مصر يلاحظ اجماعاً أو ما يشبه الاجماع على أن من أهم مقومات تحرير المرأة أن تقوم بنفس الأعمال التي يقوم بها الرجل وأن تكسب كما يكسب حتى تستطيع أن تخلص نفسها من سيطرته واستبداده . كما يلاحظ رغبة ملحة في تسخير أجهزة الاعلام لخدمة حركة تحرير المرأة داخل المفهوم الذي تؤمن به الحركة والقائمات بأمرها . وكانت السيدة أمينة السعيد رئيسة تحرير مجلة حواء أشد المتكلمين والمتكلمات وضوحاً حين قالت :

« لذلك يجب أن يترك في يد المتقدمين فكراً وليس المتخلفين فكراً وليس المطالبين بتقصي أثر السلف الصالح . . . ولكن لا يستطيع أن ادفع الصحافة الى هذا الجزء القليل المتخلف الذي يقف في سبيل تقدم المرأة بدعوى التمسك بمبادئ السلف الصالح في كل شيء » .

« هناك دعوة الى أن تلجأ وسائل الاعلام الى طرح قضايا المرأة موضع الحوار . انا في الواقع لا أوافق على هذه الفكرة وضد وضع قضايا المرأة موضع الحوار لأننى بالخبرة وجدت أن هذا الحوار غير

مجد بسبب تدخل عناصر ممثلة للأفكار القديمة البالية التى لا تساعد المرأة على التحضر مطلقا . الحوار يرهقنا بسبب هذه السلبيات التى تعوق كل تقدم للمرأة ولو كان الأمر بيدى ما سمحت لأهل الفكر القديم أن يعالجوا شئون المرأة ونحن فى بلد يسعى الى الحضارة ولا يسعى الى التخلف أو المحاولات التى تبرر الواقع المرير الموجود هنا . وحينما تكون مشكلة يتقدم هؤلاء بأفكار ليست لها دلالة حضارية » .

« كل ما أتمناه أن تكون هناك خطة للرقابة الحازمة ليس على المؤلفين لأن المؤلف يستطيع أن يصيغ أى شخصية بعيدا عن الصورة الأصلية . ولابد أن تكون هناك خطة حضارية ولا أوافق أن تطرح قضايا المرأة للحوار إذا كنا نستهدف تقدمها لأن الحوار إما أن يقتصر على أهل الفكر المتقدم وإما لا يطرح نهائيا . والدليل مسألة تحديد النسل . أهل الفكر المتخلف نسفوا كل الجهود التى قامت بها الحكومات والهيئات فى سبيل توعية الناس بكلمتين بأن قالوا هذا عمل غير دينى » .

اعتقد أنه يمكن بعد هذا البيان الحكم بثقة واطمئنان على حركة تحرير المرأة فى مصر بأن المفهوم الغربى الوثنى يحكمها فكرا وسلوكا . وشاهدنى على سلامة هذا الحكم ذلك الأسلوب الهابط الذى استخدمته السيدة أمينة السعيد فى التعبير عن رأيها . فقد كان لزاما عليها — وهى الكاتبة العتيدة والصحفية الواعية — ألا تدوس بقدميها حرية الرأى وترفض الحوار النزيه وأن لا تتطاول على مقامات السلف الصالح الذين لا يمكن أن ترقى هى وكل من على شاكلتها الى مواطىء أقدامهم ! .



الفصل الرابع

تجربة قاسية

ان حركة تحرير المرأة الغربية سابقة على مثلتها في مصر . فالأولى بدأت في أواخر القرن الثامن عشر والثانية بدأت في أواخر القرن التاسع عشر . والأولى سـَـارت في طريق قليل الوعورة والثانية كان طريقها وما يزال شديد الوعورة . ولذلك حققت حركة تحرير المرأة الغربية أهدافها وبلغت المرأة غاية ماكانت تحلم به من الحرية والتحرر من سيطرة الرجل وعاشت حياتها منطلقة لا تقف ولا تتحرك الا بإرادتها الحرة . انها تعمل وتؤجر على عملها كالرجل تماما . ولم يعد يحكم علاقتها به غير الروابط التي تفرضها « أسرة الصحبة » وربما يكون مزاجها سيد تصرفاتها وحركاتها ... لقد عاشت المرأة الغربية التجربة التي نسج خيوطها داروين وغرويد وغيرهما من مفكرى أوروبا الذين ذاع ذكرهم وساد فكرهم ...

فماذا كانت النتيجة ؟ .

ما ينشر في الكتب والمجلات والصحف عن المرأة الغربية المعاصرة يساعد على ادراك المصير المحزن الذى انتهى اليه حالها وحال الأسرة في المجتمعات الغربية . وسأعرض هنا واقع حياة المرأة في بعض الدول الغربية :

(١) المرأة في السويد :

نشرت صحيفة أخبار اليوم في عدد السبت ٢٥ أكتوبر ١٩٦٩ مقالا بعنوان « السويد أو قلاع الحرية » للاستاذ الصحفي أنيس منصور نقتطف منه الفقرات التالية :

— ومن أغرب الأرقام في السويد أن ٨٠ ٪ من الفتيات لسن عذارى عند الزواج .

— وفي كل أسرة في السويد عندها فتاة في العشرين من عمرها يوجد شاب صديق لها يأكل ويشرب وينام في البيت . وكثيرا ما تدور مناقشات بين الأم والبنت وصديقتها في مستقبل العلاقة بينهما . وقد تجيء هذه المناقشة بعد سنة من اقامة هذا الشاب في البيت .

— وفي السويد من الممكن أن يترك لك الزوج زوجته اذا كنت ضيفا عنده ويرى أن هذا من مظاهر الكرم . ولكن المرأة السويدية تضيق بهذا الموقف لأنها تعتز على أن تذهب الى فراش الضيف ولكن لأنها تتصور أن زوجها هو الذي قدمها للضيف . أنها تريد أن تذهب الى فراش الضيف بمحض ارادتها وحريتها لأن الضيف أعجبها وليس بأمر من الزوج : فالزوج لا حق له في أن يفرض عليها الفراش الذي يعجبه .

— والفرق بين الفتاة السويدية والفتاة الأمريكية أن الأخيرة تجد متعة في أن تشرك وتشعل النار فيك . ولكن ليس من الضروري أن يكون بينكما أية علاقة بعد ذلك .

وأما السويدية فهي تبحث عن الود . عن الصداقة . عن الدفء . أما النار فتجيء بعد ذلك من نفسها . فالأمريكية لعبوب والسويدية جادة .

(٢) المرأة في إنجلترا :

نشرت صحيفة الأهرام يوم ١٨ ديسمبر سنة ١٩٦٩ تحت عنوان « حديث الناس » للاستاذ الصحفى على حمدي الجمال ان أحد البريطانيين ضبط زوجه مع صديق له وعرضت القضية على المحكمة المختصة . وقد توجه قاضى المحكمة الى الزوج بحديث قال فيه : « يجب أن تعتاد هذه الأفكار العصرية ... ان مشكلتك أنك عتيق الفكر . لم يعجبك أن زوجتك ضبطت متلبسة مع واحد من افضل أصدقائك . انك تعيش فى عام ١٩٦٩ » ويعلق الصحفى على حكم القضاء الانجليزى فى هذه القضية قائلاً :

« معنى هذا الكلام أن سيادة القاضى يرى ان الانسان لىكون عصرياً وواسع الأفق ويجارى الوقت الذى يعيش فيه . فعليه ان لا يمانع ان تفعل زوجته ما تشاء مع أصدقائه . واذا كان هذا ما يحدث فى عام ١٩٦٩ فما الذى نتوقع حدوثه فى العام القادم والذى يليه وبعد عشر سنوات ... على هذا القياس فان العصرية تعنى فى نظر البعض انحلالاً كاملاً للمجتمع وقضاء نهائياً على القيم الأخلاقية ... بالأمس أباحوا الشذوذ الجنسى وأباحوا الأبناء غير الشرعيين الى غير ذلك من الجرائم . وها هم اليوم يطالبون الأزواج بالتغاضى عن خيانة زوجاتهم والله يعلم ما سيطلبون غداً ... اللهم احفظ مجتمعنا من هذه العصرية الجديدة واجعل مناعتنا ضدها قوية صلبة فلقد أخذت هذه الأفكار تنتشر فى العالم بنفس السرعة التى تنتشر بها الأنفلونزا هذه الأيام » .

وقد اهتمت صحفنا بنشر أنباء فضيحة جنس كان بطلها لورد لامبتون وزير الطيران البريطانى ولورد جيلكو رئيس مجلس اللوردات ووزير البحرية ويهمن من هذه الأنباء ثلاثة نشرتها صحيفة أخبار اليوم ونذكرها بترتيب أهميتها :

النبأ الأول : حديث للورد لا مبتون يقول فيه (عدد ١٩٧٣/٧/٧)

« اعتقد ان السبب الوحيد الذى اثار الراى العام ضدى لم يكن لوجودى فى صحبة بائعات الهوى وانما لأننى عشقت فتاة سوداء من بينهم فلو اقتصر نشاطى على الفتيات الأوربيات وحدهن لما اثار الناس ضدى . لقد أضعت مستقبلى السياسى بسبب هذه السقطه لقد كنت ساذجا عندما ظننت ان علاقتى بتلك الفتاة ستظل فى طى الكتمان . لقد تعرفت عليها وعلى غيرها عن طريق شبكة محترمة لا تتعامل الا مع الشخصيات الهامة والكبيرة ولديها من الوسائل ما يحقق الأمان والضمان والسرية . ولكن شبكة الدعارة التى تعاملت معها كانت دون ذلك المستوى فسقطت فى حبال نورما ليفى وزوجها الذى قام بتسجيل وتصوير مقابلاتى معها وبيعها للصحف البريطانية وكانت الفضيحة التى كلفتنى مقعدى فى مجلس اللوردات » .

القبا الثانى : اقتراح من آلان مور احد شباب حزب المحافظين نشرته أخبار اليوم (عدد ١٩٧٣/٧/٢١) .

يطلب آلان مور من الحكومة البريطانية أن تفتح منزلا يدار للدعارة يكون التردد عليه قاصرا على الوزراء وكبار رجال الجيش والدولة . وتلخص الصحيفة الاقتراح على النحو التالى :

✱ اهتزت صورة بريطانيا أمام العالم بسبب الفضائح المخجلة التى انكشفت أخيرا والخاصة بلورد لامبتون الذى التقطت صورته وسجلت أحاديثه فى غرفة خاصة مع بائعات الهوى .

✱ وسبق أن انكشفت فضيحة أخرى مماثلة منذ ١٠ سنوات هى فضيحة كريستين كيلز التى كانت عشيقة لوزير بريطانى ثم وقعت فى غرام دبلوماسى سوفيتى واستغلها فى الحصول على أدق أسرار بريطانيا .

✱ وصاحب الاقتراح يرى أنه من المستحيل أن يمتنع كبار المسئولين فى البلد من البحث عن اللهو فى صحبة أجمل الفتيات .

فالمسئول من البشر من السهل جدا أن يضعف عندما يتقابل مع فتاة جميلة ومن الصعب جدا أن نطالبه برفض دعوة لتمضية سهرة وردية مع مانيكان أو مع نجمة سينما .

* ومن المؤكد أن نسبة لا تقل عن ٧٥ ٪ من المسؤولين لهم علاقات خاصة وحياة ليل لا يعرف أسرارها غيرهم . أو هكذا يحاولون . كما أن الـ ٢٥ ٪ الباقية من المؤكد أن أصحابها لم يعرفوا حياة الليل ليس زهدا فيها وإنما لعدم وجود الفرصة أو لخوفهم من انكشاف أمرهم .

* وأصحاب حياة الليل من كبار المسؤولين يقعون دائماً فريسة بين يدي بائعات الهوى اللاتي يعملن غالباً لحساب أجهزة مخابرات أجنبية ومعادية ... وبالتالي تتساقط أسرار الدولة الواحد بعد الآخر .. عندما يفقد المسئول اتزانه . وتتحل عقدة لسانه تحت تأثير الخمر والجنس .

لكل هذه الأسباب والمبررات يطالب الآن مور بأن تواجه الحكومة البريطانية هذه الحقيقة بشجاعة وتقدم على علاجها بكل أكثر شجاعة وهو افتتاح منزل يدار للدعارة ويختلف في ادارته وتشغيله عن باقى دور الدعارة التقليدية . فالمنزل المقترح يكون خاصاً بكبار رجال الدولة . ولا يسمح لغيرهم بدخوله أو التردد عليه . ولم يكف صاحب الاقتراح بذلك وإنما قدم المزيد من خطوات التنفيذ منها :

— تتولى ادارة المخابرات البريطانية اختيار مكان هذا البيت . وتتولى أيضا اختيار مجموعة الفتيات اللاتي يعملن فيه . — يمكن للوزير والقائد العسكرى الكبير أن يتردد على هذا البيت الأثيق بمنتهى الحرية . بلا خوف من افتضاح أمره . بلا حاجة الى توتر أعصابه عند دخول بيت الدعارة أو الخروج منه . فجميع هذه الخطوات تتم تحت اشراف المخابرات البريطانية .

— وبذلك يمكن ضمان الاحتفاظ بسرية الدولة وضمان عدم وقوع المسئول في حبال ملء أجناب أوقعوا به عن طريق فتاة جميلة خائنة لوطنها .

— كما أن هذا الاقتراح سوف يسعد المسئول البريطاني .

انتهى الاقتراح وبدأت الضجة حوله :

** البعض رفض الفكرة ووصفها بأنها فكرة سخيفة وغير لائقة بحكومة المحافظين .

** والبعض الآخر رحب بها وقال أن الدولة لن تحرم من مواهب وخبرات شخصيات كبيرة وسياسية مثل أنتوني لامبتون ولورد جيليكو وغيرهم .

** والمتحمسون للفكرة قالوا أن فرنسا أخذت بها منذ فترة . ففى باريس ينتشر عدد من تلك الدور الخاصة جدا والتي يتردد عليها الصفوة .

** والولايات المتحدة سبقت فرنسا في هذا المجال فهناك فتيات يعملن باشراف وكالة المخابرات المركزية ولا يسمح لهن بالاتصال بأى (زبون) بما فيها الآراء المؤيدة والآراء المعارضة . إلا عن طريق الوكالة . فهن مخصصات لكبار رجال الدولة .

وقد نشرت صحيفة الأهرام أيضا أنباء هذه الفضيحة يوم ١٩٧٣/٥/٢٦ وفى الأيام التالية جاء فيها أن عدد الوزراء الذين اشتركوا فيها بلغ أربعة كما اشترك فيها دوق وقاضية وشخصية كبيرة فى التلفزيون .

النبا الثالث : نشرته أخبار اليوم فى ١٩٧٣/٦/٩ تقول فيه :

« أعرب ٥٩ ٪ من البريطانيين عن اقتناعهم بأن الحياة

الشخصية للسياسيين أمر لا يهم أحدا آخر . وقال ٥٥٪ منهم أنه ليس من الضروري استقالة الوزير لأنه قام بعمل شخصي ما دام لم ينتهك القانون » .

عندما قرأت هذه الفضيحة لم اهتم بها لأنها تساعد على ادراك الحالة التي وصل اليها الشعب البريطاني وحسب ولكن لأنها ذكرتني على الفور بجماعة فيلسوف الاغريق الشهير أرسطو الذي زعم أن الشباب الأرستقراطي يعمل الفضيلة لذاتها ويأتى الخير ويتجنب الشر لا رغبة في مكافأة أو رهبة من عقوبة ولكن لأن نفوسهم نشأت مستعدة للخير وترعرعت بين أعطاف النبل والشرف .

وليست دلالة حديث لورد لامبتون قاصرة على تسرب الانحلال الى أعلى مستويات المسؤولية وقمة الطبقات الاجتماعية بل تكشف عما وصل اليه الجنس من شيوع وانتشار تنظمه وتستغله منظمات أو شبكات استمتع اللورد بخدمات اثنتين منها .

ولفت اقتراح ألشاب المحافظ الأنظار الى أن هذه الفضيحة ليست الأولى في نوعها ويذكر المسئولين بفضيحة كريستين كيلر عشيقة أحد الوزراء البريطانيين منذ عشر سنوات . كما يؤكد أن ٧٥٪ من المسئولين لهم علاقات خاصة وحياة ليل . وتقول اخبار اليوم أن البعض رفض الاقتراح ووصفه بالسخف والبعض الآخر رجب به وقال أن فرنسا أخذت به . وأن الولايات المتحدة الأمريكية سبقت فرنسا فهناك فتيات يعملن تحت أشرف وكالة المخابرات .

(٣) المرأة الأمريكية :

في العدد ١٠٤ من مجلة كتابي الشهرية الصادر في يوليو سنة ١٩٧٠ تعريف بالكاتب الأمريكى « جون أب دايك » كواحد من اعلام الادب العالمى المعاصر وركزت المجلة في حديثها عنه على قصته المسماة « أزواج وزوجات » لأنه قصد فيها تعرية المجتمع الأمريكى

بأن كشف ما تحت مظاهر المدنية والحضارة من انحلال فاق الانحلال
الذى أودى بالامبراطورية الرومانية فى الماضى .

وقعت أحداث القصة فى « ماساتشوستس » حيث تتكشف
بدائية الديمقراطية الأمريكية — كما تقول المجلة — بصورة عجيبة
شاذة تتمثل فى علاقات أزواج وزوجات بلدة « تاربوكس » الذين
انغمسوا فى كتلة سوداء من الجنس المستباح .. ويكشف المؤلف
فى غير موارد عن غايته فى تعرية المجتمع الأمريكى الذى أصابه
الانحلال بدرجة لم يسبقها مثيل فى التاريخ ففرق فى أحوال الجنس
لا تردعه أخلاق ولا مثاليات ولا ضمير . ويقول « أب دايك » لقد
كثر الحديث القاسى عن أن الحب والجنس أصبحا القاعدة الجديدة
لمبادئنا الأخلاقية فأردت أن أوضح هذه القاعدة لأنساعل هل هى شىء
مرغوب فىل بالفعل ؟ ثم سلط الأضواء على المجتمع فاذ بكل زوج على
علاقة أئمة بزوج رجل آخر . « تبادل بين الأزواج والزوجات » .

ومؤلف القصة — كما تقول المجلة — يؤمن بأن ماضى أمريكا
كان يتسم بالجواهر الطيب والصالح الشامل . ثم قدر لهذا الماضى أن
يتبخر الآن وذهبت معه الفضائل . ولكن « أب دايك » لا يرى أن هذا
الضياع الكامل نكبة ماحقة . وإنما يراه مرحلة من التجربة الأمريكية
ودافعا يجب أن يؤدى الى الكمال . وقد أراد الكاتب انذار قومه
قبل انهيار مجتمعهم حين اختار لقصته موضوع الضلال الذى ساد
الحضارة الأمريكية حتى أصبح المجتمع الأمريكى اليوم شبيها بالمجتمع
الرومانى عند انهيار الامبراطورية . مع فارق واحد هو أن الرومان
كانوا يحاولون الخروج من جحيم اللذة فى حين أن الأمريكىين يحاولون
الانغماس فيه ... ولقد اتخذت أبطال الرواية الجنس وممارسته
عن طريق تبادل الأزواج والزوجات — كما فعل الرومان من قبل —
ملهياتهم ومتعتهم وداءهم وعلاجهم وأملهم وخبيثتهم
وئارهم ومخدرهم وسبيلهم الأوحى للفرار من الملل ووسيلتهم الوحيدة
للتقارب والتعاطف ودرعهم الأوحى ضد الشعور بأن الموت قادم .

وإذا كان هذا الأديب « جون آب دايك » قد استغل مواهبه — قلمه وفنه وخياله — في رسم لوحة دقيقة معبرة عن حياة المجتمع الأمريكى المعاصر — فإن المجتمع قد عبر عن نفسه بعد ذلك تعبيراً يعجز عن محاكاته دقة وجراحة أبرع وأعظم كتاب هذا الزمان . ففى يوم من أيام عام ١٩٧٠ سلطت الأضواء على ساحة القضاء فى احدى المدن الأمريكية لمحاكمة زعيم الهييز وبعض أتباعه على عدد من جرائم القتل اتهموا بارتكابها . ولقد نشرت جريدة الجمهورية على صفحاتها ثم فى كتاب الجمهورية يوميات مانسون زعيم الهييز متناولة تفاصيل ما دار فى جلسات المحاكمة التى كشفت عن التواضع الذى التزمه الأديب « أبديك » وهو يقدم لقرائه صورة مخزية للمجتمع الأمريكى المعاصر .

ومع أن منهج هذه الدراسة يفرض على أن أنقل للقارىء الكثير مما جاء فى تلك اليوميات إلا أن اعترافات المتهمين زاحرة بفاحش القول وهو الأمر الذى تأباه لغة القرآن الكريم ويرفضه خلق الاسلام . ولذلك أكتفى بالإشارة الى أن يوميات مانسون نشرت بالعدد ٢٧ من كتاب الجمهورية .

ولقد أتيح لصحفى مصرى أن يقوم بدراسة واعية للمجتمع الأمريكى وأن ينشر دراسته ومشاهداته فى عدد الجمهورية الذى صدر يوم الخميس ١٠/٨/١٩٧٢ تحت عنوان « أيام فى نيويورك الغابة المتمدينة » أنقل فيها إلى بعض فقراتها :

المجتمع الأمريكى مجتمع عجيب ... فيه من يملكون كل شيء وفيه من لا يملكون أى شيء مجتمع خلقت منه السياسة والاقتصاد والدولار عالماً من عبدة المال ... عالم كله فسق والحاد وانحلال ومجون ... وأصبح الإنسان الأمريكى العادى مجرد آلة تعمل وتعيش بالتقسيط ... صحيح أن الفرد هناك يملك المنزل والسيارة (آخر موديل) والتليفزيون الملون وجميع وسائل الحياة الحديثة ولكن بالديون لأصحاب شركات الاحتكار والمال والتجارة .

فمثلا هناك شركات تعلن في الصحف والتلفزيون وبصفحات كاملة (استلم سيارة بدون أن تدفع مليما واحدا وكل ما هو مطلوب رقم حسابك في البنك واسمك بالكامل ورقم بطاقة العمل) وتكون النتيجة ... الديون والاقساط التى لا تنتهى .. حتى دفن الموتى عندهم بالتقسيط المريح وتكون النتيجة أن تتضخم أموال الاحتكاريين وأصحاب رؤوس الأموال فيغرقون الأسواق كل يوم بمخترعات جديدة وآلات حديثة وافكار جديدة فتتفرق معها الأسر في بحر من الديون والاقساط التى ربما طالت لعشر أو لعشرين سنة .

مشغول دائما : ومن هنا فان الرجل الأمريكى أصبح مشغولا دائما ... بالسيارة الجديدة .. وبالمنزل الجديد .. ولذلك فهو يعمل من الثامنة والنصف صباحا .. حتى الخامسة مساء ليتمكن من تسديد الديون والاقساط ... لدرجة قتلت فيه المشاعر الانسانية والروابط الاسرية .. فهو وحيد بين أسرته واذا فتح الجريدة فانها ليقرأ الأسعار والاعلانات وأخبار الجرائم والقتل واذا جلس أوقات فراغه أمام التلفزيون فانها ليشاهد الكرة وأفلام القتل والجنس والاعلانات ويسجل أرقام تليفونات البائعين ليشتري ويبيع ويدفع ويعلن تفليسته وهكذا تجده بعيداً عن العالم الخارجى .. وبعيدا عما يجرى في الأمم المتحدة — وهى على بعد أمتار منه — وبعيدا عن السياسة في الخارج والداخل ومشغول بنفسه عن نفسه .

وأما عطلة نهاية الاسبوع فمن الأسر الأمريكية من تذهب الى الأرياف أو الى (المزارات) وهناك يعشقون المزارات ونشاهد في أعداد يومى السبت والأحد من صحف نيويورك حوالى عشرين صفحة اعلانات عن المزارات ... فيأخذ الأمريكى سيارته ودفتر الشيكات ويتجول من شارع الى آخر ومن مدينة الى مدينة وراء قلم حبر نادر او صورة ملونة أو تمثال مغشوش . ومن الطريف أن هناك بعض المزارات بالتقسيط أيضا . أى ادخل المزار واشتر ما تريد وادفع

مؤخرا ولا تظن أنك ستهرب ... فلا بد أن تدفع اليوم ... أو غدا
المهم أنك ستدفع ...

ومعظم الأسر الأمريكية مشغولة عن أمريكا بحياتها ...
ومشغولة عن العالم بمشاكلها وأفراد الأسرة كل في عالمه الخاص ...
الأب ... لا يعرف أين زوجته ... والزوجة لها عملها ومشاغلتها
وأصدقائها وحفلاتها الخاصة ... والبنت بعد الثامنة عشرة تعيش
حياتها بعيدا عن الأسرة وبمفردها ... والابن يترك المنزل والمدرسة
ليعمل بالثانوية فالتعليم الجامعي نفقاته باهظة ولا يمكن أن يتحمله
أى أب أمريكي دخله السنوى حوالى ١٥ ألف دولار ولذلك تجد
الآباء يطردون أولادهم بعد الثامنة عشرة فعليه أن يعمل ليعيش وأن
يلتحق بالجامعة مساء إذا أراد وعلى نفقته .

ولذلك فان الأسرة الأمريكية متفككة منحلة ملحدة لا تعرف
الدين ولا العبادة ... حتى الكنائس بيعت بالمزاد ففى ولاية
نيوجرسى وحدها يوجد أكثر من ٥٠٠٠ كنيسة بيع منها ٦٠٠ كنيسة
بالمزاد العلنى .

الخوف من الشيوعية : والأولاد لا يتعلمون الدين فى المدارس
الغيت مادة الدين وتركت للأسر وللعائلات فكانت النتيجة الانحلال
لعدم وجود الحافز والخوف من الله ... الآباء أنفسهم لا يعرفون
الدين تخرج الأبناء ملحدين أو مسيحيين اسما ... وحتى الديانة
لا يكتبونها فى شهادات الميلاد أو الباسپورت أو البطاقة العائلية .

ولواجهة هذه الموجات من عدم التمسك بالدين قامت الدولة
بإصدار قانون جديد وهو أن كل من ينتمى الى عقيدة أو كنيسة
أو دين فان الدولة تعفيه من الضرائب الباهظة بنسبة ٣٥ ٪ فكانت
النتيجة أن معظم اقطاعى أمريكا وكلهم من الصهاينة راحوا يسجلون
اسمائهم فى دور العبادة اليهودية ويتبرعون لاسرائيل كجهة دينية
... الأمر الذى اصبحت به التبرعات الى اسرائيل تصل الى ملايين

الدولارات سنويا لا حبا في اسرائيل بل هروبا من الضرائب وأما هدف الدولة من التمسك بالدين فلا حبا في الدين بل محاولة لمحاربة الاحاد وبالتالي خوفا من الشيوعية .

وحتى الزواج أصبح لا يعقد فى الكنائس بل عند المسجل أو العبد . . . وأصبحت الأسرة الأمريكية يضرب بها المثل فى الانحلال الخلقى وتتعجب عندما تعرف أن هناك ٢٥ مليون فتاة وسيدة أكثر من عدد الرجال . . . ولذا كانت هناك أزمة زواج وأزمة طلاق . . . فبين كل خمس سيدات واحدة مطلقة وكل مطلقة تعيش حياتها كما تريد والقانون يحميها طالما لا ترتكب الجنس خارج منزلها .

افعل ما تشاء . . . بعيدا : وعلى الرغم من قوانين تقييد الطلاق العنيفة التى اصدرتها الدولة وهى تنص على أن كل مطلقة لها الحق فى نصف ممتلكات زوجها ونصف دخله مدى الحياة وعلى الرغم من هذه القوانين فإن الطلاق زاد زيادة تهدد المجتمع الأمريكى . . . لأن المرأة الأمريكية متمردة بطبعها . . . جنسية بطبيعتها . . . مغرورة . . . متعجرفة . . . منحلة . . . لا تؤمن بالمثل ولا بالأخلاقيات . . . فتسعى للطلاق لكى تعيش حياتها مطلقة وينصف دخل الرجل مدى الحياة .

لا تخرج وحدك : ولم أصدق نصيحة أحد المصريين هناك عندما قال لى : (احذر الخروج ليلا الا مع جماعة والأفضل داخل سيارة . . .) فأتيت فى أول ليلة خرجت فيها فى نيويورك وقبل غروب الشمس وفى ميدان جورنال سكوير شاهدت شابا يلمع فتاة بمطواة طعنات جريئة واثقة . . . وتفت متبادا بلا حركة . . . فكل أحاسيسى توقفت عن الحياة . . . فقدت الشعور تماما للحظات وخيل الى أننى أشاهد فيلما أمريكيا وفجأة جذبنى صديقى المصرى قائلا : ان هذه الجرائم عادية جدا . . . فسيحضر البوليس بعد هروب القاتل . . . وربما يسوقنا أمامه بتهمة القتل . . . وتشبثت الفتاة بالهواء . . . ثم تمايلت وسقطت أما الفتى فقد مسح الدم عن المطواة . . . وبكل هدوء شق

طريقه بعيدا .. لا أحد يقف .. ولا أحد يسأل .. لا أحد ينقذ وقرأت
في جريد الصباح أخبار جريمة ميدان جورنال سكوير .. والنقائل
مجهول ..

اين بوليس نيويورك ؟ اين الحرية في بلاد العم سام ؟ واين
المدنية والحضارة ؟ .

أعتقد أنك الآن عرفت لماذا يعطى تمثال الحرية ظهره لأمريكا .

وإذا كانت فضيحة الجنس في انجلترا قد كشفت عن انغماس
أربعة من الوزراء ودوق وقاضية في الرذيلة فان الولايات المتحدة
الأمريكية فازت بنصيب الأسد في الفضائح ذلك أن الصحافة حملت
الينا في شهر مايو ١٩٧٣ وما تلاه من شهوور أنباء ما أسمته (فضيحة
ووترجيت) وهى الفضيحة التى كشفت عن تغلغل الفساد فى البيت
الأبيض . وهو فساد لم يسلم منه رئيس الجمهورية نيكسون ولا
نائبه ومستشاروه .

ونختم هذه الصورة المحزنة المفزعة بخبر من نيويورك نشرته
صحيفة الأهرام يوم ١٩/٢/١٩٧٣ يقول : « زاد عدد الزوجات
اللاتى يهرين من منزل الزوجية من حالة واحدة فى كل مائة حالة منذ
عشر سنوات الى حالة واحدة من كل ثلاث حالات الان وخاصة
فى المدن الكبرى . أعلنت ذلك شركة تريسرز أف أمريكا وهى شركة
متخصصة فى تعقب الأشخاص المفقودين وقالت الشركة أن السبب
فى هذه الظاهرة هو حركة التحرر النسائية التى أصبح لها أوسع
النفوذ والتأثير فى البلاد » .

* * *

الفصل الخامس

حركة تنوير: لا تحرير

قد تكون المرأة الغربية على حق في استعمالها كلمات « جهاد ونضال وكفاح وتحرير » تعبيرا عن رغبتها في التخلص من استبداد الرجل وسعيا الى تصحيح مكانتها الاجتماعية . لأنها عاشت عصور الظلام محتقرة مستذلة من الرجل ومستعبدة . فلما جاءت عصور النور لم تتغير أوضاعها ولم تتحسن أحوالها .

ولكن ليس من حق المرأة المصرية أن تستعمل نفس الكلمات وليس من حق حركة تحريرها أن تكون امتدادا لحركة تحرير المرأة الغربية لأننا اذا استعرضنا تاريخ علاقة الرجل المصرى وامراته لا نجد فيه ظلما ولا بغيا تقره الشرائع أو القوانين . وانما نجد في عهود الظلام ما يصاحب الجهل والفقر عادة من حماقات وسوء العادات .

نفى عصر قدماء المصريين كان لكل فرد في الأسرة كيانه المستقل بما فيه من حقوق وواجبات . والمساواة بين الزوجين كانت مقررة وكاملة . فكانت الفتاة تتزوج بمحض اختيارها وكان لسلك من الزوجين أملاكه وأمواله يديرها ويتصرف فيها وفق ارادته الحرة . وكذلك كانت لأبنائهما وبناتهما نفس الحرية متى بلغوا سن الرشد ويقول الاستاذ المؤرخ سليم حسن في كتابه « مصر القديمة » أن

تعدد الزوجات لم يكن مباحا أو لعله كان مباحا ولكن بشروط ثقيلة يصعب تحقيقها . وفى عهد الاسرتين الخامسة والسادسة نشأت طبقة اقطاعية سيطرت على كل مصادر الثروة وحولت حياة الشعب الى جحيم . ذلك ان الفلاح والعامل والموظف الصغير صاروا انصاف احرار لا يجوز لهم ترك العمل عند اقطاعى للعمل عند اقطاعى آخر . وكانت الأرض تباع بمن عليها من فلاحين . وتغيرت المراكز القانونية لأفراد الأسرة التى أصبحت وحدة يمثلها رب الأسرة وهو الأب ثم الابن الأكبر من بعده فى إدارة أملاكها والتصرف فيها . وتغير مركز المرأة تبعاً لذلك فقد أخضعها القوانين الجديدة لرب الأسرة خضوعاً كاملاً وسلبتها شخصيتها المستقلة وحريتها ومكانتها الاجتماعية المرموقة . وقد انتهت هذه الفترة العنصرية التى قاسى فيها كل من الرجل والمرأة الكثير من المظالم بثورة شعبية أعادت الحقوق لأربابها .

ولما حكم الأغريق مصر فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد راعتهم تلك الحقوق التى كنلتها القوانين المصرية للمرأة فأسرعوا الى تعديلها حتى لا تطالب المرأة الاغريقية بمساواتها بالمرأة المصرية . هكذا يقول الدكتور ابراهيم نصحى فى كتابه « تاريخ مصر فى عصر البطالة » . وظلت المرأة المصرية تعاني من تشريعات وحكم الاغريق ومن بعدهم الرومان حتى جاء الاسلام بسماحته وعدله لينصف المرأة لا من الرجل المصرى ولكن من التشريعات الغربية التى تضع المرأة فى مرتبة لا تحسد عليها .

وفى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى بدأ الزحف المملوكى على المجتمع المصرى ولم يمض وقت طويل حتى صار اليهم حكم مصر والسيطرة على ريفها وحضرها . ولم يكن المالك مع اسلامهم يعرفون غير القليل من لغة الاسلام والقليل من أحكامه السحاء . ومن كانت هذه حالة غلبت على أعماله المظاهر بقدر بعده وجهله بحقائق الدين الحنيف . فهم أول من

أوجد نظام الحريم في بيوتهم . وحساكاهم في ذلك
المصريون الذين تقربوا اليهم وتملقوهم طمعا في مال أو جاه ..
وقد كانوا قلة غير محسوبة . أما الكثرة الغالبة من المصريات وتمثل
في الفلاحات ونساء الأحياء المتواضعة في المدن فكانت بعيدة تماما
عن هذا التزمت الوافد على المسلمين من مركز تجارة الرقيق في جنوب
أوروبا ووسط آسيا .

وفي القرن التاسع عشر الميلادي تفتحت عيون المصريين على
المجتمع الأوروبى بعد قرون عديدة من التخلف هنا وقرون من التقدم
هناك . فكان أول ما انبهرت تلك العيون به سفور المرأة الغربية
وتبرجها . ومنه بدأ التفكير في تحرير تلك المرأة التى حبسها
الممالك وراء جدران جناح خاص في قصورهم أسهوه « الحرملك »

والدليل على صحة قولى هذا ما قالته السيدة هدى شعراوى
في محاضرتها التى نقلت بعض فقراتها في الفصل الأول والتى تؤكد
أن الدور الذى لعبته الأميرة نازلى فاضل كان يستهدف تحرير أولئك
النسوة الشركسيات اللاتى خرجن من وراء أسوار حريم قصر الخديو
اسماعيل الى حريم قصور وبيوت الأمراء والعظماء ليكن زوجات لهم .
وهن الجوارى البيض اللاتى قام الخديو اسماعيل بتثقيفهن بمختلف
العلوم والفنون وقد نبغ عدد عظيم منهن في الأدب التركى والشعر
وفن التمثيل والموسيقى والرياضة البدنية كما تقول السيدة هدى
شعراوى . وأعتقد أن الرقص هو المقصود بعبارة الرياضة
البدنية .

لم تكن حال المرأة المصرية هى التى حفزت الأميرة نازلى على
فتح صالونات قصرها والقيام بالدور الذى أشادت به السيدة هدى
شعراوى لأن المرأة المصرية كانت في ذلك الوقت مواطنة من درجة
دنيا لا تحظى هى وزوجها وأولادها بغير احتقار الأسرة الحاكمة

ومن دار في فلكها من اترك وشراكسة وأجانب — « السنا عبيد احساناتهم » كما يقول الخديو توفيق ولأن المرأة المصرية كانت تقيم في القرى في الأكواخ . وفي المدن في الاحياء المتواضعة اشد ما يكون التواضع . لم تدخل قط سجن الحريم ولم تختف قط وراء حجاب . وكانت تؤدي ابولرها الاجتماعية كزوجة وأم وربة بيت قدر ماتسعفها خبرتها الموروثة وكذلك كانت دائما في عون زوجها كلما كانت به حاجة اليها .

ان محاولات الخديو اسماعيل لجعل مصر قطعة من أوروبا كانت مغنية بالمظهر أكثر من عنايتها بالجواهر ولذلك سادها الاعتقاد بأن تبرج المرأة الغربية واختلاطها بالرجال كان من أهم وسائل تقدمها . فكان اهتمامه بجوارى قصره وكان اهتمام الأميرة نازلي غاضل بالدعوة الى تبرج المرأة المصرية ومحركاتها الغربية . وهى الدعوة التى تحولت مع الأيام الى حركة تحرير المرأة المصرية والتى ظلت الى يومنا هذا أمينة على مبدأ التبرج ومحاكاة المرأة الغربية بل ومنافستها في التزين والتجمل واطهار المفاتن .

وجدير بالذكر أن هذه الحركة عاشت فترة طويلة من عمرها في مجتمع فرض عليه التخلف قرونا عديدة بل ما يزال الى يومنا هذا يبذل جهودا جبارة لينفض عن بدنه وعقله بقايا كثيرة منه . والمجتمعات المتخلفة تكون عادة تربية خصبة للثقافات والأفكار الوافدة عليها من المجتمعات المتقدمة . لذلك التمس العذر لحركة تحرير المرأة المصرية التى بدأت من فهم خاطيء للتقدم الذى حققته المجتمعات الغربية بظنها أن تبرج المرأة وخروجها للعمل كان من أهم انوسائل التى حققت ذلك التقدم . والتمس العذر ايضا فيما استعملت من ألفاظ معبرة عن وجود صراع عنيف بين الرجل والمرأة ومصورة الرجل في صورة القوة الغاشمة التى تستضعف المرأة وتستذلها . ولكن بعد ثورة الشعب المصرى عام ١٩١٩ وثوراته المنتهية بثورة عام ١٩٥٢ تفتح العقل المصرى على حقائق كثيرة .

وأصبح واضحا أن ما تعانيه المرأة من سوء معاملة الرجل لم يكن سوى واحد من مظاهر التخلف الإقتصادي والفكري الذي فرض على الشعب المصري . كان ضحيته الرجل والمرأة معا . ولم يكن سوء معاملة الرجل للمرأة مستندا الى شريعة أو قانون . فالقانون السائد هو الشريعة الإسلامية وقد سبق بيان فضلها العظيم على المرأة . ولكن كان مستندا الى الجهل الذي أطبق على كل من الرجل والمرأة والذي أخلى الطريق الى منطق القوة الجاهلة .

كان المأمول اذن بعد أن انتشر التعليم وتحقق للعقل المصري قدر من الاستنارة والترشيد أن يحدث تطوير في حركة تحرير المرأة المصرية وتغيير في أهدافها . فلا معنى لاستخدام كلمات « تحرير . ونضال . وصراع » بعد ما زالت عن العقول غشاوة الجهل . وظهر أن الرجل والمرأة بريئان من سوء القصد فيما كان يحدث بينهما وأنها كانا معا ضحية للظلم والتخلف أقول كان المأمول أن تتطور حركة تحرير المرأة في مصر الى حركة تنوير تقوم رسالتها على تبصير المرأة بواجبها نحو مجتمعها الصغير وهو الأسرة ومجتمعها الكبير وهو الوطن . وعلى تعيين القيمة العظيمة للعمل الذي يسرت له المرأة . فغد خلقها الله جلت قدرته لتكون زوجة وأما وربة بيت .

فالزوجية تفرض عليها أن تعمل على اسعاد زوجها وأن تثري حياتها معه بالقيم الانسانية النبيلة . ومفروض في الزوج أن يكون سابقا الى مثل هذا . فاذأ ما ابتليت المرأة بزواج غير سوى الفكر والسلوك كان عليها أن تعمل على ترويضه وتقويم اعوجاجه في صبر وأناة وجلد . وهى حين تنجح في هذا تكون قد خدمت نفسها وخدمت وطنها . وعلى سبيل المثال فقد عرفت سيدة متزوجة من شباب يشغل وظيفة مرموقة ولكنه كان شديد القسوة عليها فظا غليظ القلب في معاملتها منحرفا في بعض عاداته مستهترا في بعض تصرفاته . ولم يكن متصورا ولا معقولا أن تطول حياتهما الزوجية معا .

ومع ذلك صبرت عليه وأحسن ترويضه وما زالت به حتى خلعت به من قسوته وقومت اعوجاجه ودفعت به في طريق الرجولة الكريمة . لقد كانت تقول دائما لأهلها أن زوجها مريض ولن تتخلى عنه . وصدق المثل الذي يقول « أن وراء كل رجل عظيم امرأة » والأمثال كما هو معروف حصيلة تجارب طويلة . وهو المثل الذي أثار اليه ساخرا ومنكرا الدكتور يوسف الحاروني في مقال سنناقشه في فصل لاحق .

والأمومة تفرض عليها أن ترعى أطفالها وتنشئهم على أسس علمية صحيحة سواء في مجال الصحة أو مجال التثقيف والتعليم وأن تفرس في نفوسهم مكارم الأخلاق وحب الوطن . والأم هي القادرة وحدها على أن تجعل من أولادها مواطنين صالحين قادرين على خدمة وطنهم مستعدين للتضحية في سبيله بالمال والروح . وسنرى في فصل (درس من التاريخ) الدور العظيم الذي قامت به أم الملك « أحمدس الأول » في نشئة ولديها على حب الوطن . وكيف ترجما ذلك عمليا في حرب التحرير من الاستعمار الهكسوسى .

وربوبة البيت تلقى على المرأة مسئولية ادارته ادارة علمية سليمة سواء فيما يتصل بالبيت كماوى أو كمجتمع بشرى . فمن حيث هو مأوى للأسرة ينبغى عليها أن تحسن تنسيقه وأن تبدع تنظيمه وأن تتقن تجهيله . ومن حيث هو مجتمع بشرى فان مسئوليتها عنه يمكن حصرها في الخطة التى ترسمها لادارة اقتصاد الأسرة التى يجب أن تستهدف تحقيق المآكل والملبس الملائم والادخار . واذا كان الادخار يمثل واجبا من أهم الواجبات الوطنية المفروضة على ربه البيت فان الوعى الادخارى الصحيح سيجعلها تستشعر مسئوليتها عن أى صورة من صور الاسراف الذى يعتبر بحق العدو الأول لاقتصاد الأسرة واقتصاد الوطن .

تلك هى الواجبات التى يسر الله جلّت قدرته المرأة لها . وهى

كما ترى جليلة الخطر ولا يمكن أداؤها باتقان الا بالعلم والعرق .
ومع ذلك فان علماء الاجتماع والمشتغلين بحركة تحرير المرأة
لا يعتبرونها عملا يستأهل أن تنفرد المرأة له لأنه عندهم « عمل
طفولى » على حد تعبير احدى الصحفيات فى الأهرام يوم
١٩٧٢/٥/٢ . وأنه لمن فضل الله على مصر أن نساءها لا يشجعن
حركة تحرير المرأة ويحرصن على احترام فطرتهن . هذه حقيقة
تعترف بها قيادات حركة التحرير كلما تحدثت عن معوقات الحركة .
مما سلفت الإشارة اليه فى أكثر من موضع . وفى هذا المجال أنقل
ما نشرته صحيفة الجمهورية يوم ١٩٧٢/٧/١٣ لزوجة أحد كبار
المسؤولين اجابة عن سؤال عن واجبها الوطنى فى الظروف العصيبة
التي تمر بها بلادنا :

« أعتقد أن واجبى نحو وطنى يتلخص فى وقوفى دائما وفى كل
مرحلة وراء زوجى وأولادى فالزوجة المثقفة المثقمة لطبيعة عمل
زوجها تكون جزءا لا يستهان به فى تمكين الزوج من القيام بمهام
عمله على أكمل وجه . وفى هذا ما فيه من واجب نحو الوطن .
كذلك الأم التى تحسن تربية أولادها وتعتهم ليصبحوا شبابا مؤمنين
بوطنهم مستعدين للتضحية من أجله مقدرين لواجباتهم نحو بلدهم
والمجتمع الذى يعيشون فيه تقدم لوطننا ضريبتة المفروضة عليها .
والمجتمع الذى يعيشون فيه تقدم لوطنها ضريبتة المفروضة عليها .
هذه هى الضريبة المؤجلة التى تظهر نتائجها بعد سنوات . أما
الضريبة العاجلة فهى العمل الوطنى فى مجال الخدمة الاجتماعية وبث
روح الكفاح والأمل فى كل من تقابلهم » .

ولكن حركة تحرير المرأة فى مصر ظلت ماضية فى طريقها مؤمنة
بالمفهوم الوطنى لتحرير المرأة رافضة المفهوم الإسلامى بكل ما فيه من
عدالة وسماحة . وليس الحوار الذى دار فى ندوة الاعلام بجامعة
الدول العربية وكذلك ما جاء فى تصريح الدكتورة عائشة راتب وزيرة
الثقون الاجتماعية السابقة وفى محاضرة السيدة هدى شعراوى

هو كل ما يمكن الاستشهاد به في هذا المقام . بل اننا نجد في الصحافة الكثير . ولعل من أهم ما اطلعت عليه ذلك المقال الذى نشرته صحيفة الأهرام فى ١٦/٦/١٩٧٢ تحت عنوان « الرجل المطحون الكيان » لأنه يكشف عن العقلية التى شكلتها حركة تحرير المرأة فى مصر بل عن الروح العدائية التى أوجدتها هذه الحركة .

والمقال تلخيص لكتاب قالت المحررة الصحفية التى كتبت التلخيص ان مؤلفته خانت بنات جنسها لتدافع عن الرجل . واكتفى هنا بنقل العبارات التى قدمت بها للتلخيص . تقول المحررة :

« فى ألمانيا الغربية وفى قرية صغيرة فى ولاية بافاريا تبعد ٣٠ كيلو مترا عن ميونيخ تعيش فى بيت كبير مع ابنها مارتن (٨ سنوات) أشهر امرأة فى ألمانيا اليوم وغدا وفى العالم أجمع . كما أنها أيضا أكثر امرأة مكروهة . . السبب أنها خانت النساء علنا وفضحتهن ووجهت اليهن أبشع التهم . هذه المرأة الخائنة هى (استرغفيلار ٣٦) مظهرها كله عذوبة ونعومة . جوهرها كله خشونة ومراة . حالتها الاجتماعية مطلقة . مهنتها طبية وعالمة اجتماع وأيضا أخصائية فى علم النفس . ولكنها فى أوائل هذا العام قررت أن تستبدل السماعاة الطبية بالقلم وتخلت عن رحمة الطببة الانسانية التى كلها حنان . وتحولت بوحشية الى نمرمة مفترسة . وراحت تكتب كتابها الذى عنوانه (الرجل المطحون الكيان) وفيه لا تدافع عن المرأة وقضية تحريرها كما هو المفروض وانما حاولت على العكس أن تثبت أن الرجل فى عصرنا هذا مجرد عبد للجنس الضعيف الذى يسيطر عليه بكل طغيانه » .

« وهذا الكتاب — لأن كل فصوله عبارة عن هجوم عنيف على المرأة — نجح نجاحا — ساحقا وقد ترجم الى ١٦ لغة ويحتل الآن رأس قائمة أكثر الكتب التى تباع فى الغرب . ومنذ ظهر الكتاب

والكاتبة الخائنة كلما قامت برحلة فى أى دولة تقوم النساء فيها
بمظاهرات عينة تلعنها فيها وتتذفها بوابل من الشتائم البشعة .
بل وقد حدث أثناء زيارتها لفيينا أن حاولت النساء ضربها . وفى
أوسلو توجهت حشود من النساء الى دار النشر النرويجى التى
طبع كتابها وكتبن على جدران المبنى عبارات كلها سب . وإمام هذه
الحمالات والمظاهرات الصاخبة ترد الكاتبة التى لا تعرف شيئا
عن التضامن النسائى ضد امبريالية الرجل بهدوء اوليمى بدافعية
عن نفسها قائلة : « لقد وجدت أنه من الضرورى أن أثبت للمرأة
أنها يجب أن تتغير ليس لأن الرجال يفرضون عليها طغيانا أبديا ولكن
على العكس لأن النساء جعلن من الرجل فى مجتمعنا كلبا مروضاً
تماماً حتى تكون حياتهن سهلة » .

فى كتاب (الرجل المطحون الكيان) تظهر المرأة فى صورة كلها
قسوة وفظاظة تصحبها أدلة وبراهين توجع وتوسع مثل عضمة
الثعبان أو لدغة العقرب . ان المرأة فى نظر هذه الطيبة الناعمة
والخشنة الجوهر غبية ولكنها سلطانة زمانها . مادية بحتة ولكنها
طاغية . ليس لها قلب ولكنها مستبدة . ومن هو ضحية هذا الوحش
ذو المظهر الضعيف الذى هو المرأة ؟ انه الرجل . الرجل الذكى
الطيب الشهم الشجاع الذى قهرته المرأة وسيطرت عليه وأستعمرته
وحولته الى عبد لها . وهذا الكتاب كما تقول استرغيلار كان من
المفروض أن يكتبه رجل ولكن حينئذ كانت نساء العالم سيوجهن
اليه تهمة أنه كتب هذا الكتاب ليبتقم من النساء لأنه كان تعيساً
معهن . وأنا لا أريد أن أخلق حركة تحرير للرجل مثل حركات تحرير
النساء التى تجتاح العالم . ولكن كل شخص يجب أن يجد لنفسه
الحلول المناسبة . بأن يبدأ بحل المشكلات الصغيرة . كما أن عليه
أن يربى أطفاله بعيداً عن قواعد آداب السلوك التقليدية التى هى فى
الواقع العلامات الخارجية للعبودية . واليك بعض مقتطفات من
هذا الكتاب الذى سوف يهتف ويهلل له الرجال بينما سوف تلعنه

النساء وهو في الواقع يتضمن الكثير من الحقائق الصادقة ولكنه في نفس الوقت يتضمن أيضا بعض الاتهامات الكاذبة » .

ان كتاب « الرجل المطحون الكيان » واحد من أصوات بدأت تطلو في المجتمعات الغربية منذرة بالعواقب الوخيمة لسياسة تحرير المرأة بمفهومها السائد هناك . وكان ينبغي أن نصغى جيدا لهذه الأصوات العاقلة وأن نتدبر ما تحمله إلينا . ولكن الكلمات التي استخدمتها الصحفية في وصف مؤلفة الكتاب « امرأة مكروهة — هذه المرأة الخائنة — تحولت بوحشية الى نمرة مفترسة — الكاتبة الخائنة — التي لا تعرف شيئا عن التضامن النسائي ضد امبريالية الرجل » هذه الكلمات قاطعة الدلالة على تفشى الفكر الغربى الانائى العدوانى بين نساينا المثقفات المعنيات او المشتغلات بحركة تحرير المرأة فى مصر . وهو امر بالغ الخطورة على مستقبل شعبنا وامتنا . ذلك ان الفكر الغربى يثير بأنانيته وعدوانيته فتنة بين الرجال والنساء فى مجتمع متدين ويثير فى صدر المرأة المصرية العداوة والبغضاء ضد الرجل لأنه يصوره لها انسانا انانيا مستغلا متجبرا متعاليا .



الفضل السادس

حوار

تنشر صحفنا الكثير من الأخبار والمقالات التى تخدم اهداف حركة تحرير المرأة . وقد بدا لى من المفيد دراسة بعضها والكشف عما قد يكون بها من بعد عن جادة الحق والصواب :

(١) نظرة الى المرأة المصرية المعاصرة :

مقال للدكتور سيد عويس نشرته الاهرام يوم ١٩٧١/٢/٨
هذا نصه :

« أصبحت الادوار الاجتماعية للأنثى فى مجتمعنا المصرى المعاصر عديدة . فهى الآن تؤدى دور الأم ودور الزوجة ودور الأخت ودور الابنة ودور القائدة او دور الزميلة فى المنظمات الاجتماعية او مؤسسات العمل كالأسرة او المدرسة او الجامعة او مكان العمل على تبين أنماطه او جمعية الخدمة الاجتماعية او المنظمة السياسية ... الخ فضلا عن دور الجارة فى مكان السكان .

« والملاحظ أن المكانة الاجتماعية لدور الأم كواحد من الادوار الاجتماعية للأنثى المصرية فى ضوء قيم هذا المجتمع ومبادئه ومثله العليا مكانة مرتفعة جدا . على عكس المكانة الاجتماعية لمعظم ادوارها الاجتماعية الأخرى . واقصد بالمكانة الاجتماعية هنا التقدير الاجتماعى الذى يخلعه المجتمع أو جماعته على عضو من اعضاء

(م ٦ — حركة تحرير المرأة)

المجتمع . وتتضمن عناصر هذا التقدير عادة الحب والخشية والاعجاب .. كلها أو بعضها أو واحدا منها .

« ونحن نرى أن هذا التقويم لمكانة الأنثى المصرية في ضوء أدائها أدوارها الاجتماعية الحيوية العديدة الأخرى لا يتماشى مع القيم التي من وراء العلاقات السائدة في مجتمعنا المصرى المعاصر . ومن ثم فهو لا يستند الى منطق سليم ويجب أن يتغير الى الأفضل بتغيير النظرة ندو الأدوار الاجتماعية التى تؤديها الأنثى المصرية من غير تفرقة بين دور وآخر ما دام الأداء سويا . فهى اذ تؤدى هذه الأدوار الاجتماعية أولا وقبل كل شئ انسانية لها شخصية اجتماعية تستحق كل تقدير . وبدون أداء هذه الأدوار الاجتماعية أداء سويا وبخاصة ما تعلق منها بتكوين الأسرة التوجيهية (أسرة الأب والأم والأخوة والأخوات) أو تكوين الأسرة التناسلية السوية (أسرة الزوج والزوجة والأطفال) لا يمكن تصور وجود المواطنين الصالحين فى المجتمع .. ولن تكون الأسرة سوية الا اذا أصبحت المرأة فعلا وحقا شقيقة للرجل .. لها حقوقها الانسانية وعليها واجباتها الاجتماعية فى ظل قانون يعترف بها كإنسانة ذات كرامة تستحقها عن جدارة » .

« وإذا كان المجتمع المصرى قد جرب سيادة معظم الأدوار الاجتماعية التى تؤديها الإناث فيه فترة من الزمان فقد آن الأوان فى الوقت الراهن فى ضوء الضرورة الاجتماعية لراجع هذا المجتمع نفسه ويغير هذا الوضع الجائر . فالملاحظ فى ظل هذا الوضع الجائر من وجهة نظر مصلحة مجتمعنا المصرى المعاصر أن الأنثى المصرية أقل عدوانا عليه من الذكر المصرى » .

ومجانبة الصواب فى هذا المقال تظهر بوضوح فيما يلى :

١ — الاعتقاد بقدرة المرأة على أداء الوظائف السبع أداء سويا مع أنه من المستحيل تصور وجود إنسان رجلا كان أو امرأة له من القدرة العقلية والبدنية ما يؤهله للقيام بها على نحو مرضى .

٢ — المطالبة بقانون يعترف بأن المرأة انسان لها كرامتها .
وكانه لا علم له بالقانون الخالد الذى صدر منذ ١٤٠٠ عام والذى
نشر على العالمين فى كتاب أنزل على خاتم المرسلين محمد بن عبد الله
عليه الصلاة والسلام . قانون الهى كرم المرأة كما لم يكرمها قانون .

٣ — الدعوة الى تخلى الرجل عن مقاعد القيادة والرئاسة
للمرأة لأنها أقل عدوانية على المجتمع . وهو بذلك يسقط تفوق
الرجل الجسمانى والعقلى كما يسقط خبرته التى اكتسبها من
ممارسته هذه الأعمال قرونا عديدة . واستشهاده بالأبحاث التى
دلت على أن الذكور من الأطفال أكثر عدوانية على المجتمع من الاناث
لا يؤيد وجهة نظره التى يدحضها ما قدمت من أدلة على تفوق الرجل
على المرأة فى العقل والجسم كما يدحضها واقع حياتنا المعاصرة .
فاسرائيل تراسها امرأة ومع ذلك فقد اقترن حكمها بأبشع صور
العدوان على الشعوب العربية والهند تراسها امرأة ومع ذلك لم
تتردد — عندما اتاحت لها الفرصة — فى شن حرب عدوانية على
باكستان — هذا فضلا عن أن المرأة فى مجتمعنا كانت وما تزال وراء
كل جرائم الثأر .

٢ — نحن نظلم المرأة اذا عاملناها كالرجل :

مقال للدكتور خليل مظهر نقلت مقدمته فى الفصل السابق وائقل
هنا الموضوع كاملا :

« لماذا كتب هذا : راقيت فى السنوات الأخيرة المرأة وهى
لا تكاد تخرج من نوع من الظلم الا لتقع فى نوع جديد منه . أما
الظلم الكلاسيكى القديم فنعرفه جميعا حق المعرفة . فقد حرمت
به المرأة لأجيال طويلة من أشياء كثيرة أهمها التعليم والشخصية
المستقلة . كما حرم العالم من مجهود نصف البشرية فى المشاركة فى
كثير من الأعمال والمسئوليات والانتاج وسررتنا جميعا حين رأينا
الفتيات يدخلن المدارس ثم الجامعات ويشاركن الرجل فى كثير من

الأعمال . وبذلك تضاعف عدد المتعلمين كما تضاعف عدد العاملين ولا بد لى هنا أن أعترف كأستاذ جامعى أن المرأة أثبتت أنها لا تقل عن الرجل فى هذا المجال بل وقد فاقتة فى بعض الأحوال . وكان لهذه التجربة معنى خاص عند المنصفين منا فقلنا ان المرأة تخلصت أخيرا من ظلم الرجل كما تخلص العبيد من ظلم الاسياد وكما تخلص الفقراء من ظلم الأغنياء وبهذا تخلصت البشرية من ظلم الانسان لأخيه وساد العالم مبدأ (العدل والمساواة) بين جميع البشر مهما اختلف الجنس أو اللون أو المال .

وكننت من الجيل الذى رأى هذا التغيير وسر به أى سرور . ثم بدأت بعد ذلك لاحظ أمثلة من نتائج أو مضاعفات هذا التغيير هزت مشاعرى وبدأت سلسلة من المراقبة والتفكير تكلمت فيها كثيرا مع أصدقاء من الجنسين وبلورت أخيرا شعورى بضرورة الكتابة فى هذا الموضوع .

— آنسة تتألم كل شهر أثناء الدورة الشهرية وتوافق هذه الدورة وقت امتحان المدرسة أو الجامعة وتصل هذه الآلام فى بعض الحالات الى التأثير فى نتيجة الامتحان وتحرم الطالبة من مجهود عام كامل بغير اثم ارتكبته . وطالبة أخرى تزوجت قبل انتهاء الدراسة ويأتيها من المخاض أيضا فى وقت الامتحان ما يضيع الامتحان . هذا والطالب الرجل معصوم من هذه المضاعفات والمعوقات .

— سيدة فى الشهور الأولى من الحمل تشكو مما تشكو منه الحامل فى هذا الوقت من خمول أو قىء وتحتاج لراحة خاصة حفظا على جنينها ثم تأتى عليها الشهور الأخيرة من الحمل يزيد فيها هذا الجنين حجما ووزنا . ويسبب لها كثيرا من المتاعب . كل هذا وهى تقوم بعمل وظيفتها جنبا الى جنب الرجل القوى المعاق .

— أم تنتزع من طفلها الرضيع لساعات طويلة لتذهب الى وظيفتها وتتركه تحت عناية شغالة بالمنزل ذات ثقافة قليلة أو عاملة فى دار حضانة ربما زادت عنها ثقافة وقلت عنها رائة ورحمة .

— زوجة حصلت على ثقافة تساوى ثقافة زوجها ووصلت الى وظيفة مثل وظيفته بما فيها من عمل ومسئوليات تبدأ يومها بملاحظة الواجبات المنزلية للعائلة وتعود من عملها لا للراحة التي يتمتع بها زوجها بعد الانتهاء من عمله بل لتستأنف واجباتها المنزلية . وعليها أن لا تهمل جمالها وهندامها أمام زوجها لتحتفظ بجاذبية الأنثى وواجبات الزوجية . كل هذا والرجل غير مسئول عن شيء من هذه الواجبات المنزلية اللهم الا مسئولية الناقد الشديد . والمفتش المحقق .

ماذا أريد أن أقول : أرى فيما رايت وذكرت ظلما واضحا على المرأة . ففي الماضي الظالم كانت المرأة مختصة بالواجبات المنزلية والرجل بواجبات العمل خارج المنزل . ثم جاءت ما سميت بالمساواة . فاستمرت المرأة مسئولة عن الواجبات المنزلية وزاد عليها واجبات عملها .. خارج المنزل . والمنطق البسيط يقول ان لا مساواة في هذا ولا عدل بل فيه الظلم كل الظلم . فبهذا يكون نصيب المرأة في العمل أكثر من نصيب الرجل .

وأرى أن الحل المنطقي لهذا الوضع المجحف بالمرأة لا يكون إلا بأحد طريقتين أما أن يتساوى الرجل والمرأة في المسئولية داخل المنزل وخارجه أو أن يخفف من عمل المرأة (على الأقل في ظروف خاصة) حتى يمكن أن تقوم بالواجبات المنزلية .

وسأبين أن تقسيم الواجبات المنزلية بين المرأة والرجل بالتساوى مستحيل لسبب بسيط جداً وهو أن جزءاً هاما من هذه المسئولية لم يكن نتيجة التقاليد والعادات أو حتى ظلم الرجل للمرأة بل نتيجة أن الطبيعة نفسها قد خصت المرأة وحدها بجزء هام من هذه المسئوليات هي حفظ نسل الإنسان وبقاء البشرية على وجه الأرض .

من هذا يظهر أني أميل الى الحل الثانى وهو تخفيف واجبات المرأة في عملها في الظروف التى تحتّم عليها القيام بواجبات منزلية

هامة وخاصة بها وهنا أبداً بتقسيم علمى للواجبات التى تقوم بها المرأة فى المنزل — أو بتعبير أصح — علاوة على عملها الخارجى حتى نرى اذا كان فى الامكان اقتسامها مع زوجها . فاذا لم يمكن ذلك بالعدل والمساواة فلا مفر اذن من تخفيف أعمالها خارج المنزل .

واجبات المرأة التى لا يقوم بها الرجل اليوم : وحتى يظهر ظلم الرجل للمرأة فى بعض هذه الواجبات أو براءته فى بعضها الآخر فانى أقسم هذه الواجبات الى ثلاثة اقسام :

* واجبات للمرأة خصتها بها الطبيعة ولا يمكن للرجل أن يقوم بها .

* واجبات تجيدها المرأة ولكن يمكن للرجل أن يقوم بها .

* واجبات يمكن أن يقوم بها الرجل كالمرأة .

الواجبات التى خصتها بها الطبيعة : ان جميع المخلوقات تتمتع بالقدرة على حفظ نسلها حتى تبقى الحياة على وجه الأرض . والانسان يملك هذه القدرة ويندفع اليها بغريزة قوية تكاد لا تقاوم — غريزة التناسل — ولكن بعد اللقاء الأول الذى يشعر فيه الذكر والأنثى بمتعة جسمية ونفسية ينتهى دور الذكر ويبدأ دور طويل من المسئوليات تتحمله المرأة وحدها حتى تظهر ثمرة اللقاء فى مخلوق جديد يمكن أن يستقل عن والديه ويحمل رسالة الانسان .

ودور المرأة فى هذه الوظيفة الانسانية الشريفة دور محفوف بالمناعب والآلام والجهد من دورة شهرية الى أشهر الحمل الى وضع الجنين ثم ارضاعه .. وأود أن اتخيل ان الطبيعة لم تنظم المرأة عندما خصتها بهذه المسئولية الكبرى ولكنها وثقت فيها وفى حبها لوليدها لتتحمل هذه المناعب والآلام (١) فحب الأم أقوى من أى حب آخر

(١) تعبير « الطبيعة » الذى يستخدمه الدكتور خليل مظهر تعبير غير اسلامى وهو يقصد فطرة الله تعالى التى فطر عليها المرأة .

وغريزة الأمومة أقوى بكثير من غريزة الأبوة ، وقد كافأها الله سبحانه وتعالى ووضع الجنة تحت أقدام الأمهات .

ولا أنوى أن أطيل في وصف آلام الدورة الشهرية عند بعض النساء والسيدات أو متاعب الحمل ومضاعفاته في الشهور الأولى والشهور الأخيرة منه وما يصاحب الوضع من جهد وآلم أو أيام الأولى من حياة الطفل وما تحتاجه من عناية وحنان وعطف فكلنا يعلم ذلك . وقد وضعت بعض التسهيلات للمرأة كأجازة الوضع . ولكن أين إجازة الحمل أو إجازة الرضاع أو إجازة العناية بالطفل في الشهور الأولى الحرجة في حياته .

الواجبات التي تجيدها المرأة : هنا يبدأ الجدل وتختلف الآراء ويقول البعض ان بعد انجاب الطفل تتساوى المرأة بالرجل في الاشتراك في الواجبات المنزلية . وأنا لا أنكر واجب الرجل في مساعدة زوجته في المسؤوليات المنزلية ولكنى لا زلت أرى دورا أو أدوارا لا تجيدها الا المرأة .

*** دور الزوجية :** ولا أقصد الأثنى بل أقصد شريكة العمر التي تقف بجانب شريكها وتشجعه وتؤازره في اليسر وفي العسر والتي قال عنها المثل ان وراء كل رجل عظيم امرأة .

*** دور الأم :** هذا الدور يجيء كامتداد طبيعي للحمل والرضاع والعناية بالطفل في الأسابيع والأشهر الأولى ومن يكون أقدر الناس على العناية بالطفل أكثر من الأم بعد أن حملته بين أحشائها ثم أرضعته من لبنها وأحاطته برعايتها ليل نهار في صحته ومرضه .

*** دور سيدة البيت :** ولا أقصد بهذا المجهود الجسماني الذي تقوم به المرأة في الأعمال المنزلية ولكنى أقصد الجو الروحاني الذي يتصف بالجمال والنظام الذي تضيفه المرأة على المنزل الذي به امرأة والمنزل الذي حرم من هذه النعمة .

✽ **دور الممرضة وطبيب العائلة :** في الأمراض العادية لا يصلح رعاية المريض من الأولاد والزوج أكثر من الزوجة بما تتصف به من قدرة عجيبة على الصبر والسهر والحضان .

الواجبات المنزلية التي يمكن أن يقوم بها الرجل والمرأة :

نتيجة لانتشار التعليم سيقل عدد الشغاليين بالمنازل أو ربما اختفوا تماما . وستقوم كل أسرة بجميع الأعمال المنزلية وقد حدث هذا في البلاد التي سارعت في التقدم قبلنا ووجدوا الحل في تبسيط هذه الأعمال وفي تعاون جميع افراد الأسرة - فصغر حجم المسكن وقل الأثاث وسهل تنظيفه . كما بسطت طريقة طهو الطعام وقامت الصناعة بأعداد جميع أنواع الآلات الكهربائية التي تساعد على أداء الأعمال في وقت قصير وجهد قليل وقد رأيت الرجال في أوروبا وأمريكا ينظفون السجاد والأثاث بالشفاط الكهربائي ويغسلون الملابس والأطباق بالآلات الخاصة بذلك . وأرى في القريب العاجل هذه التغييرات في منازلنا ورجالنا .

الحل : أرى أن تستمر المرأة في تعليمها وعملها خارج المنزل ولكني أرى أن من واجب الرجل أن يشاركها في الواجبات المنزلية كلما أمكن ذلك ولكن عندما تقف الطبيعة حائلا دون ذلك العدل فعلينا جميعا أن نخفف من أعباء عملها خارج المنزل لتقوم بوظيفتها المقدسة . وظيفه حفظ النسل ورعايته » .

من الواضح أن الدكتور خليل مظهر قد استجمع كل شجاعته ليبدى رأيا يعلم أنه لا يرضى أنصار مساواة المرأة بالرجل . ولكن استشعاره بمسئوليته الوطنية دفعه الى استجماع كل شجاعته لينشر على الناس هذا الرأي . وقد استعمل بعض عبارات واصطلاحات لا أدرى هل تعبر فعلا عن معتقده أم أنه قصد بها التخفيف من وقع رأيه على المرأة وأنصارها . وعلى أية حال فإني لاحظت على مقال الدكتور مظهر :

١ - انه يسقط من حسابيه الفكو الأسلامي والتنظيم
الإسلامي .

٢ - انه يعدد المتاعب التي تتعرض لها المرأة العاملة معجبيا
في تصويرها لأمانة مهنته وكأنه صوت النفير لبنى وطنه .

٣ - ان المرأة والمجتمع كانا في غنى عن المشاكل والمتاعب
التي تعتبر نتيجة حتمية للمتمرد على طبيعة النفس البشرية .

٤ - انه يوجد اصرار على الخطأ . فيطالبون بعلاج
للمشاكل بدلا من الاعتراف بالخطأ والمودة الى الأوضاع
الطبيعية .

٣ - نحو نظرة جديدة الى المرأة : مقال للدكتور يوسف الحاروني
نشرته صحيفة الأهرام بعددها الصادر في ١٩٧١/١١/٢٤ ويرد
فيه على مقال الدكتور خليل مظهر :

« قضية المرأة ووضعها في المجتمع التي اثارها الدكتور خليل
مظهر على صفحات الأهرام هي بلا شك احدى القضايا الأساسية في
عالمنا المعاصر . ويهمنى في هذه الكلمة ان ألقى بعض الضوء على
جوانب هذه القضية التي يبدو فيها وكأن المرأة قد ظفرت بالفعل
واتخذت مكانها الصحيح مساوية رأسها برأس الرجل . وأن تحرر
المرأة قد استكمل إبعاده واستوفى مقوماته حتى بدأنا نحذر من
الأغراق في المساواة . وانا نظلم المرأة باسم مساواتها بالرجل .
ولعلنى أبادر قبل الدخول في الموضوع ان أنبه الى ان الدراسة
العلمية المثلى تقتضى بادئ ذي بدء التحرر الفكرى والتحلل النفسى
من قيود الأوضاع والتقاليد وجبروت العادات والمعتقدات - وهى
في قضية المرأة بالذات ذات جذور عميقة وأغوار سحيقة عبر القرون
البعيدة والأجيال العديدة . حتى يبدو وكأن الأمر الطبيعى أن تكون
المرأة تابعة للرجل خاضعة له وانهما ما خلقت الا لتكون في
المقام الثانى .

والحقيقة أن المرأة بشكل أو بآخر ما زالت كما هي وكما كانت دائماً من قبل مجرد أداة في كل ميدان من ميادين الحياة تقريباً أداة لضمان تزويد البلاد بالسكان وأداة لتعليم الأطفال وأداة للقيام بأعباء المنزل وأعباء الزوجية لارضاء الرجل وأخيراً وليس آخراً أداة لسد حاجة الاقتصاد القومي إلى الأعمال البسيطة الزهيدة الأجر. والواقع أنني أتناول قضية المرأة من موقف صعب أزاء مجتمع قد تطبع واستقر على أنه عالم الرجل . وليست هذه النظرة المتجنبة قسراً على الرجل وحده بل الأمر من ذلك أن المرأة نفسها سجيئة هذه القيود والأغلال . فحيثما أجريت استطلاعات بين الشباب من الجنسين عن الآمال والأهداف من الحياة يكاد البنات يجمعن على أن الزوج وتكوين الأسرة هو أهم أهدافهن بينما تتسم نظرة الشباب بالطموح الاقتصادي أو المكسب المادي . وقد يقول قائل إن الخصائص البيولوجية للمرأة هي التي ترسم وتحدد دورها في الحياة والمجتمع . لكن المرأة في هذا الشأن ليست سوى أنني الحيوان المعروف باسم (الإنسان المعاقل) ومن هذا الموقع فإن الأعمال الوحيدة التي أنيطت بالمرأة ولا يمكن أن يتأهل لها الرجل هي الحمل والولادة فهل تدفعها هذه الوظيفة إلى التتهقر إلى الصفوف الخلفية وراء الرجل . هل هذه هي سنة الطبيعة . تجيبنا عن هذا السؤال البحوث والدراسات التي أجريت على مجتمعات الحيوانات وبصفة خاصة القرود - أقرب الحيوانات إلى الإنسان في سلم التطور . فلقد وجد العلماء أن القرود التي تعيش في ظروف آمنة لا يوجد لديها تقسيم للعمل ما بين الذكور والإناث بل تتشابه سلوك الجنسين إلى حد بعيد فتسهم الإناث في الحصول على الغذاء وملاحظة الجماعة ويشارك الذكر في حمل الصغار وتربيتها وجميع عمليات رعايتها باستثناء الرضاعة . وقد يحسب البعض أن الرضاعة هي ركيزة الأمومة التي يقوم عليها ارتباط الطفل وتعلقه بأمه ومن ثم هدوء نفسه وأحاسيسه بالأمان . غير أن أحد العلماء انبرى لتحقيق هذه الفكرة بتجربة شهيرة استخدم

فيها اثنتين من دمي القردة زود احدهما بثدي يرضع الصغير لبنا
بينما كسى الدمية الثانية بمخمل ناعم دافئ واطلق على الدميتين
صفار القردة فكان اتجاه الصفار ليس الى ذات الثدي التي تمنح
الطعام بل الى ذات المخمل الناعم الحانى التي تشيع الدفء بالالتصاق
بها والارتواء في أحضانها . واستنتج العالم من ذلك أن أهم ما ينشده
الطفل من أمه هو الحنان والدعة . ولئن قلنا أن صدر الأم حنون بطبعه
فإن الأب كذلك يستطيع أن يمنح الدفء والرعاية . ولقد أثبتت
الدراسات النفسية أن الأطفال لا يدركون فوارق الجنس في حياتهم
المبكرة وأن أعمال التنشئة والتطبيع هي التي تتولى بث هذه الفوارق
وغيرس الاتجاهات النموية لها . فتحدد الأوضاع النفسية بالنسبة
للجنسين وترسم أنماط السلوك لكل منهما . والقوالب الثقافية
التقليدية التي تتعصب ضد المرأة هي وحدها المسؤولة عن الآثار
العقيمة والأوضاع الجائرة التي تميز قضية المرأة اليوم . ويكفى
أن نتأمل ما في لغتنا وأمثالها من تمجيد للرجل والرجولة وتحميلها
معاني الصدق والشهامة والحكمة . بينما نلحق بالعنصر النسائي
صفات الضعف والاستكانة والخضوع . ان المرأة تنفذ الى عالم
الرجل بصعوبة بالغة . وغير صحيح أن الرجل يأخذ بيدها ويسمح
بانطلاقها ويكفى أن نتناول بالدراسة والتحليل أهم مظاهر تحرر
المرأة في العصر الحديث الا وهو خروجها الى دنيا العمل . فنحن
نعلم انه فيما قبل الثورة الصناعية الحديثة جرى تقسيم العمل بين
الرجل والمرأة . فيتولى الرجل أمر العمل خارج البيت للكسب
والحصول على الدخل اللازم للانفاق على أسرته . وانيط بالمرأة
العمل داخل منزلها لتهيئة المسكن وتدبير الأحوال المعيشية لأفراد
الأسرة . وكانت تلك قسمة ضيزى . اذ كان عمل الرجل هو المرموق
الذى يدر المال بينما اتسم العمل المنزلى بالهوان اذ لا يحس المرء ازاءه
بالامتنان اذا أنجز وانما يصب لومه وتعنيفه اذا قصر فيه . وحين
أفسح الرجل المجال للمرأة للحصول على عمل خارج بيتها غفل أو

تغافل عن العبء الذى يقع على كاهلها داخل بيتها وأدى خروج المرأة الى دنيا العمل الى تحملها بالعنين — حيث تعمل نوبة فى المكتب أو المصنع ونوبة ثانية فى البيت لتؤدى الأعمال المنزلية التقليدية . وتدل الاحصاءات على أن المرأة فى الدول المتطورة تقضى فى أعمال البيت ثلاث أو أربعة أضعاف الوقت الذى يقضيه الرجل ذلك مع اغفال الوقت الذى ينفق مع الأطفال وفى شراء الحاجات وهو ما يقدر فى المتوسط بساعة على الأقل بالنسبة للمرأة المتزوجة العاملة . ومن هنا ندرك بوضوح مدى الثقل الذى يقع على كاهل المرأة وحدها وهروب الرجل وتخففه من المشاركة فيه . ان السؤال الذى يتردد فى هذا الصدد . هل أعمال المنزل حقيقة ذات طابع انثوى لا تتفق أو تتماشى مع طبيعة الرجل ؟ هل تنظيف المنزل وغسل الملابس وشراء الحاجات وطهو الطعام واعداد المائدة وتجميل البيت وحتى التزين والاهتمام بالنظافة والمظهر جميعا أعمال ينبغى أن يعنى منها الرجل . أولا يقوم الرجل بالفعل بجميع هذه الأعمال اذا قدر له أن يعيش بغير اسرة ؟ ولماذا تتفق هذه الأعمال مع طبيعة الرجل اذا كان من طبقة الشغاليين أو الخدم ؟ ان اصرار الرجل على التخلّى عن دوره فى المشاركة فى هذه الأعمال لا يحمل سوى معنى الاثرة والاستعلاء ولا شك أن السيادة والخضوع هى أساس غير سليم فى العلاقات الانسانية . ان اسطورة (ان وراء كل رجل عظيم امرأة) يجب أن تتبدل بنموذج أكثر نضجا فلكى يكون المجتمع (لا الرجل) عظيما يجب أن يعمل النساء والرجال جنبا الى جنب لا على أساس ان واحدا خلف الآخر . واذا شئنا أن نجعل معالم النظرة الجديدة التى نطالب بها نحو المرأة حتى نعالج قضية تحرر المرأة معالجة حقيقية جذرية فهى أولا أن يأخذ الرجل بنصيب حقا فى رعاية الأطفال وتنشئتهم فاحتضانه الطفل وأحاطته بالحنان ليس وظيفة بيولوجية مقصورة على الأم بل يستطيع الرجل أن يدلى بدلوه فيها فيكافأ على ذلك بتعلق الأطفال وحبهم له . ثانيا : أن يقتسم الرجل عن سماحة وتقدير أعمال المنزل مع زوجته وأن يتنازل عن صلفه

في مزاولة دور السيد . ان منزل الزوجية وعاء الطرفين . ينبغي ألا يكون دور أحدهما العطاء ودور الآخر الأخذ فقط . ثالثا : ان نحاول جهد الطاقة تغيير مظاهر التمييز الغربية في التنشئة الاجتماعية ما بين البنت والولد . وهذا الدور مناط بصفة أساسية بالقادة والادباء والمسؤولين عن التعليم والاعلام . »

لأن هذه المقالة رد على مقال آخر فقد احتوت على أهم الأسس التي تحكم وتوجه حركة تحرير المرأة في مصر . وأجدر آرائها بالمناقشة ما يلي :

١ — يقول ان الدراسة العلمية المثلى لقضية تحرير المرأة تقتضى التحرر الفكرى والتحلل النفسى من قيود الأوضاع والتقاليد وجبروت العادات والمعتقدات . وهذا يعنى ان الدراسة لا تكون علمية الا اذا بدأت من فراغ وانه يجب ان نلقى وراء ظهورنا تقاليدنا ومعتقداتنا الدينية ونتبع ما يستخلصه علماء الاجتماع باجتهدهم الحض من تجاربهم على الحيوان والانسان . وتجارب القردة وغيرها التي أشار اليها الدكتور يوسف الحارونى ان دلت على شيء فانما تدل على سخفها وسخف النتائج المستخلصة منها . ذلك أن النفس البشرية لا تعرف بتجربة معاصرة على عشرات أو مئات أو ألوف من بنى الانسان وحسب وانما تعرف منها اذا أحسنت ومن أخبار الانسان في تراثنا من كتب تاريخية أو أدبية أو سماوية .

٢ — محور القضية عنده هو نماذج العلاقة بين الرجل والمرأة التي تجعل منه سيدا وهى تابعة . وقد غاب عنه أن تلك النماذج واقع مفروض على المجتمع بسبب ما كان للاستعمار من سيطرة . وهو واقع ضحيته الرجل والمرأة معا وليس المرأة وحدها . لقد فرض الاستعمار على الشعب الجهل والفقر دهورا طويلة . جهل في علوم الحياة وعلوم الدين مع فقر مدقع ومن ثم كان التفوق الجسمانى للرجل هو سيد العلاقة بينه وبين زوجه وأولاده . فلما بدأت موجة

هذا الجهل تنحسر عن مجتمعنا أخذت علاقة الرجل بالمرأة تتغير الى احسن . وينبغي هنا أن نفرق بين الرجل « سيدا » والرجل « رئيسا » . ان كثيرا من دعاة تحرير المرأة يرفض أن يكون الرجل سيدا أو رئيسا للمرأة . ومما لا شك فيه أن علاقة الرجل بالمرأة لا يجوز أن تكون علاقة سيد ومسود لأن هذا مما يرفضه الاسلام الذى يقيم علاقتهما على الحب والاخلاص والايثار . أما رئاسة الرجل للمرأة فهي حق له ليس على المرأة فقط بل على الأسرة كلها — حق يفرضه التنظيم السليم ويقره العلم الحديث . فلا يوجد مجتمع صغير أو كبير بغير رئيس واحد . والمثل العامى الشهير يقول « المركب اللى فيها ريسين تفرق » وما أكثر المراكب التى غرقت فى المجتمعات الغربية بسبب تمرد المرأة على رئاسة الرجل للأسرة .

٣ — ترفض حركة تحرير المرأة فى مصر الأسلوب الديمقراطى وتفرض وصايتها على المرأة ففى ندوة الاعلام التى أشرت إليها قالت الدكتورة زينب السبكي : « اننى اصارحكم القول بأن بناتنا غير مقتنعات بالدور الذى يقوم به الجيل الحالى وهو دور مرير لاشك فى ذلك وهن — أى بناتنا — يرغبن فى الانتهاء من دراستهن دون حماسة للأعمال النضالية أو الكفاح من أجل قضية المرأة » ويعترف الدكتور يوسف الحارونى فى مقاله قائلا « فحيثما أجريت استطلاعات بين الشباب من الجنسين عن الآمال والأهداف من الحياة . يكاد البنات يجمعن على أن الزواج وتكوين الأسرة هو أهم أهدافهن بينما تتسم نظرة الشباب بالطموح والنجاح الاقتصادى أو الكسب المادى . ومن الملفت للنظر أن تستعمل الدكتورة زينب السبكي عبارة « الأعمال النضالية أو الكفاح من أجل قضية المرأة » مع أن هذه الأعمال لم تكن فى يوم من الأيام سوى مطالب تقدم للمسؤولين ولا يصاحبها عنف ولا تقابل بعنف . فأين هو « الدور المرير » و « النضال والكفاح » إلا أن يكون الهدف توسيع وتعميق الفجوة التى تفصل بين كل من الرجل والمرأة .

٤ — يرفض الدكتور الحارونى أن يكون للخصائص البيولوجية دور في رسم وتحديد دور المرأة في المجتمع كما يرفض أن تكون المرأة وراء كل رجل عظيم . ويريد أن تكون هي عظمة أى هي التي تقوم بالعمل الذي يصفى العظمة .

ان هؤلاء الذين يقودون حركة تحرير المرأة في مصر والذين يؤيدونها يرفضون حكم الشريعة الاسلامية على حركتهم ويتكرونها للفكر الاسلامى الى حد وصفه بالتخلف والقصور وهم في هذا يقلدون الغربيين الذين تنكروا لدينهم وزعموا انه كان قيداً على تقدمهم ووصفوه بأنه « أفيون الشعوب » . ان الدين المسيحى لم يكن قط قيداً على حرية الفكر في الدول الغربية ولا معوقاً لتقدمها . بل القيد والتعويق كان نتيجة لانحراف رجال الدين عن سماحة المسيحية الى التسلط والقهر . ومع ذلك فالتاريخ يؤكد أن الغربيين نقلوا عن المسلمين علومهم وطوروها وأضافوا اليها في أوج تسلط الكنيسة كما يؤكد قيام النهضة الصناعية قبل أن ترتفع يد البابا الباطشة عن شعوب أوربا . واذا كانت الكنيسة قد تصدت لبعض المفكرين فان مسئولية التصدى لا تقع على الدين المسيحى بل يتحملها رجال الدين المنحرفون .

واذا كان المسلمون يعيشون حياة كلها فقر وجهل ومرض فلا يمكن الزعم بأن الاسلام هو الذى استدرجهم الى هذه الهوة السحيقة لأن التاريخ يشهد أن الاسلام أنشأ من مجموعة الشعوب التي آمنت به أمة عظيمة ارتفعت في أركانها منارات الحرية والعدل والعلم . كما يشهد بانها ضيقت كل مقومات عظمتها عندما تخلت عن مبادئه وأحكامه فضعفت عن مقاومة الغزاة الأوربيين الذين سلبوها كل ثرواتها بل وكل قيمها العظيمة .

فالتقدم العلمى الذى أحرزه العقل البشرى في الغرب هو كما ذكرت في الفصل السابق ظاهرة لسنة من سنن الله في الكون . ليس

لزوال سلطة الكنيسة دور فيه ، كما أن تحرير المرأة لم يسهم فيه بنصيب ما لسبب بسيط هو تقدم الثورة الصناعية في أوروبا على ظهور حركة تحرير المرأة .

ولا ينبغي أبدا أن ينسى هؤلاء الذين يتهمون على السلف الصالح ويصفون علماء المسلمين بذوى الأفكار القديمة البالية أننا شعب متدين تحكم حياته منذ ما قبل التاريخ الى يومنا هذا شرائع سماوية وأن حياته لم تزدهر الا مع سيادة أحكامها . ولذلك فإن نبذ هذه الشرائع والاعتماد على الدراسات والأبحاث التي لا يمكن أن تكون نتيجتها يقينية دعوة ملحدة يرفضها مجتمعنا — إنما تكون الدراسات والأبحاث مقبولة بل واجبة فيما ليس للإسلام رأى فيه .

قد يكون للمفكرين الغربيين الحق في الاعتماد الكامل على نتائج تجاربهم لأن تاريخ الكنيسة معهم خلق في صدورهم كثيرا من الكراهية للدين ورفضاً عنيدا لكل ما يأتي به . كما قضى على كل أمل في أن يثوبوا الى رشدتهم بالنظر في الإسلام والانتفاع بأحكامه . أعنى تاريخ الكنيسة — كان وما يزال يدفعهم الى حماقة الطعن فيه .

ولكن ليس للمفكرين عندنا أن يقلدوا أساذنتهم الغربيين في الاعتماد الكامل على نتائج بحوثهم وتجاربهم في أى شأن يتعلق بالنفس البشرية . بل يجب عليهم أن يردوه للإسلام أولا فإن كان له رأى فيه فكفى الله المؤمنين عناء البحث والتجربة . وأن لم يكن له رأى فليبحثوا ما شاء لهم البحث وليجربوا ما شأست لهم التجربة لأن الإسلام هنا يؤيد البحث والتجربة كل التأيد .

وليس لهم أيضا أن يهجروا منابع الفكر الإسلامى ويعرضوا عن ارتيادها مأخوذين بالفكر الغربى مبهورين بالتقدم الذى حققه

لجتمعاته . فليس كل ما فى الفكر الغربى جيدا وليس كل ما فى الفكر الغربى صالحا لاجتمعاتنا .

لقد طالبوا بمنح المرأة حق العمل خارج البيت بدعوى انها تعيش فى فراغ وان قطاع الانتاج محروم من نصف السكان . فلما خدمتهم الظروف وخرجت المرأة للعمل مع الرجل فى الحكومة والهيئات والشركات نشأت متاعب ومشاكل للمرأة مثل رضاعة الأطفال ورعايتهم اثناء ساعات العمل ومثل ارهاق المرأة بالأعمال المنزلية . وطالبوا الدولة بانشاء دور لحضانة الأطفال وطالبوا الرجل باقتسام الأعمال المنزلية مع زوجه حتى حضانة الأطفال يطلب الدكتور يوسف الحارونى الى الرجل أن يدلى بدلوه فيها . ومن المؤكد أنه عندها يتم ترويض الرجل على اقتسام أعمال البيت وحضانة الأطفال مع زوجه سيطالبونه بأداء كل هذه الأعمال وحده لأن تكوينه الجسمى القوى يجعله قادرا على الانفراد بها . وحينئذ سيعترفون بالفوارق البيولوجية التى ينكرونها الآن . وسيجعلونها سببا قويا لمطلبهم هذا .

ولكن هل تشغيل المرأة فى الحكومة والهيئات والشركات خدم الاقتصاد المصرى فعلا ؟ وهل مشاركة المرأة للرجل حققت لها الحرية وجلبت عليها السعادة وأخيرا هل عمل المرأة المصرية دفع مجتمعا فى طريق التقدم ؟

فأما عن خدمة الاقتصاد الوطنى فأعتقد أن حركة تحرير المرأة لا تستطيع ولديها امكانيات عظيمة وقدرات فائقة — أن تقدم دليلا ماديا واحدا على أن تشغيل المرأة قد عاد على الاقتصاد الوطنى بنتائج ايجابية — لأن الواقع يؤكد أن تشغيلها أضاف عليه عبئا ثقيلا .

فهو أولا قد تسبب فى نشر البطالة بين الشبان الذين حصلوا على مؤهلات عالية أو متوسطة . لأن الحكومة التزمت بعد صدور قوانين يوليو ١٩٦١ الاشتراكية بتشغيل كل هؤلاء فى الوزارات والمصالح والهيئات والمؤسسات والشركات . ثم تبين لها أنها تحمل

ميزانية الدولة أكثر مما تطبق فقررت أرجاء تعيين من تخرج في الجامعات والمعاهد العليا عاما زادت الى عامين ومن تخرج في المعاهد المتوسطة عامين زادت الى ثلاثة أعوام . والاحصائيات التالية تعطى القارئ فكرة عن الاعداد الكبيرة من الشبان الذين يتركون في الشوارع بلا عمل بسبب تشغيل المرأة :

* * *

٧٢/١٩٧١	٧١/١٩٧٠	٧٠/١٩٦٩	٦٩/١٩٦٨	٦٨/١٩٦٧
١٦٦٧	١٥٨٧٦	١٥٣٣٣	١٤٦١٨	١٥٢٥١
٦٧.٩	٦٤٧٦	٥٧٣٨	٥.٨٤	٤٧٥٤
٢٢٨٨٦	٢٢٣٥٢	٢١.٧١	١٩٧.٢	٢٠٠.٥

خريجو
انك
الجامعات
المجموع

٧٢/١٩٧١	٧١/١٩٧٠	٧٠/١٩٦٩	٦٩/١٩٦٨	٦٨/١٩٦٧
٤١٣٨	٣٣٧٦	٣٥٤٩	٤٢٢١	٣٧٨٥
١٩٧٣	١٥٧١	١٦٥٦	١٣٨٥	١٢١١
٦١١١	٤٩٤٧	٥٢.٥	٥٦.٦	٤٩٩٦

خريجو
انك
المعاهد
العلية
المجموع

٧٢/١٩٧١	٧١/١٩٧٠	٧٠/١٩٦٩	٦٩/١٩٦٨	٦٨/١٩٦٧
٤٨٢٨٥	٤٣٨٧٦	٤.٧٩٨	٣٥٨٤٥	—
٢٢٤٧٥	١٩٤٩٩	١٨١٦.٠	١١٣٣٣	—
٧.٧٦.٠	٦٣٣٧٥	٥٨٩٥٨	٤٧١٧٨	—

خريجو
انك
المعاهد
التوسطة
المجموع

ومن هذه الأرقام يتضح أن عدد الشبان المعاطلين في آخر عام ١٩٧٢ كان :

$$١٧٢٥١٧ = ٤٨٢٨٥ + ٤٣٨٧٦ + ٤٠٧٩٨ + ٤١٣٨ + ٣٣٧٦ + ١٦٦٧ + ١٥٨٨٦$$

شبابا

ولقد بلغ عدد النساء العاملات في الدولة ٤١٢٠٠٠ عاملة في عام ١٩٦١ وارتفع هذا العدد الى ٥٤٣٠٠٠ عاملة في عام ١٩٦٩ بينهم ٣٤٨٠٠٠ بمؤهلات عالية و ١٣٣٦٠٠ بمؤهلات متوسطة وتكون جملتهن ١٦٨٤٠٠ عاملة . اى انه يوجد شبان عاطلون بما يوازي عدد النساء العاملات في مختلف أجهزة الدولة (١) .

وهو ثانيا لا يحقق الغرض منه من حيث انه مصدر دخل للمرأة يجعل منها ندا للرجل الذى يسيطر عليها ويتحكم فيها بسبب انفاقه عليها على حد زعم حركة تحرير المرأة — لانها تنفق مايقرب من نصف هذا الدخل على التزين والتجمل ومنافسة زميلاتهن في ملاحقة أحدث ابتكارات الأزياء . وحسبنا دليلا على ذلك الزيادة الكبيرة في عديمات التجميل وتصنيف الشعر والزيادة الكبيرة في استهلاك أدوات التجميل التى بلغ انتاجها المحلى منها مقدرا بالجنيه :

عام ١٩٦٨ : ٣٠٨٦٠٠٠ — عام ١٩٦٩ : ٣٩٨٩٠٠٠ — عام ١٩٧٠ : ٥٠٧٩٠٠٠ — عام ١٩٧١ : ٥٩٤٣٠٠٠ — عام ١٩٧٢ : ٨٢٥٠٠٠ .

وهذه الأرقام تمثل الاستهلاك المحلى لأن قيمة الصادرات تعادل قيمة الواردات .

وهو ثالثا قد تسبب في هبوط مستوى الأداء في القطاع الحكومى وفي القطاع العام لأن المرأة أقل قدرة من الرجل على الأداء — وتلك حقيقة أثبتناها علميا وشهد بها الواقع الذى سجله الجهاز المركزى للتنظيم

(١) بترخيص من الجهاز المركزى للاحصاء .

والإدارة في أحد تقاريره السنوية — ولأن تشغيل المرأة كان زيادة عن حاجة العمل الى الأيدي العاملة . الأمر الذى أرقهق ميزانية الدولة فعلا وغل يد الحكومة عن رفع الأجور الى المستوى المتلائم مع الأسعار السائدة مما كان له أسوأ الأثر على نفوس العاملين . ولولا تشغيل المرأة ما تركت الحكومة أكثر من ١٧٠.٠٠٠ شاب مثقف بلا عمل عامين أو أكثر . وما ترددت في رفع أجر العاملين الى المستوى الذى يكفل لهم حياة مريحة كريمة .

وأما عن الحرية بمفهومها عند حركة تحرير المرأة فلم تتحقق بعد ولا اظنها تتحقق في مجتمع متدين كالمجتمع المصرى لأن العقيدة الدينية تضع خير الضوابط وأحكامها لعلاقة الرجل والمرأة وتمنح الرجل من حقوق الرياسة أو القيادة قدر ما يصون الأسرة من التمزق والضياع . وإذا فرض جدلا أن تحققت هذه الحرية لبعض النسوة فما أحسبهن سعيدات بها . اذ ليس ادعى فساد الرجل والمرأة على السواء من حرية بغير ضوابط وقيود .

وأما عن التقدم الذى يمكن أن يحققه للوطن تشغيل المرأة فهو بغير شك وهم . لأن التقدم هو سمو في الأخلاق ورفعة في العلوم والمعارف تنعكس آثارها على الانتاج والخدمات — وفرة وجودة — وعلى التوزيع — عدالة وسماحة . وهو أمل مازنا بعيدين عن تحقيقه وان كنا نبذل قصارى جهودنا من أجله . ثم أى تقدم هذا الذى يزحم مواقع العمل بالنساء ويترك الشباب والرجال بلا عمل لكى نفتتح على مجتمعنا أبواب المشاكل والانحرافات التى تعاني منها مجتمعات سبقتنا في هذا السبيل .

ان المرأة المصرية غير مؤمنة بعملها خارج بيتها غير راضية عن حياتها العائلية غير سعيدة بحياتها الزوجية لأن أعباءها فوق طاقة البشر . وستتهال فرحا يوم تتوهم الحكومة بتقرير أجور للرجال تكفى لنفقات أسرهم في غير ما شظف . تلك حقيقة تعرّفها حركة تحرير المرأة في مصر وتعترف بها مما اشرنا اليه في فصول سابقة .



الفصل السابع

درس من التاريخ

تقسم المؤرخون عصر قدماء المصريين الى ثلاثة عهود : عهد الدولة القديمة وعهد الدولة الوسطى وعهد الدولة الحديثة . ويمكن تلخيص السمات البارزة لكل من هذه الدول على النحو التالى :

(١) الدولة القديمة :

هى الدولة التى أسسها الملك مينا بتوحيد وجهى مصر . وقد قام اقتصادها على أساس تملك الحكومة لمساحات كبيرة من الاراضى الزراعية وتخصيص غلتها للنفقة على مختلف الخدمات من أمن ودفاع وشق وتطهير الترع وغير ذلك من الخدمات التى كانت تقوم بها الحكومة فى ذلك الزمان . أما الباقي من الاراضى الزراعية فكان ملكا خاصا للفلاحين . ولم يكن مسموحا بالملكيات الكبيرة حتى ينتفع اكبر عدد من أسر الفلاحين بالمساحة المحدودة التى لا تملكها الدولة . ولم يكن دخلها ولا اعلى الأجور المقررة لكبار موظفى الحكومة يسمح بممارسة حياة مترفة . نعرف ذلك من عجز كبار القوم عن دفع تكاليف قطع ونقل الحجر اللازم لمقبرة تليق بمقام الواحد منهم .

ومن أهم ما امتاز به حكم الأسر الثلاث الاولى العدالة المطلقة التى سادت علاقة الحكومة بالعاملين فى اجهزتها خاصة وبالمواطنين عامة . فلما ولى أبناء الأسرة الرابعة الحكم تربعوا على عرش مكين

وحكموا شعبا قويا اغنيا بأخلاقه وأمواله . فغرههم السلطان وفتنهم المال . ولولا خوفهم من الشعب لقضى شيطان العظمة في سنوات على ما حصله وحققه الشعب في مئات . وقد لا تكون الأهرام التى بناها خوفو وخفرع ومنكاروع شيئا يذكر فى مجال التنديد بسياستهم هم ومن جاء بعدهم لأن بناء تلك المقابر استأثر بالكثير من مال الشعب وعرقه . وقد كانت خزانة الدولة عامرة بالمال وقادرة على تغطية مثل هذه الأعباء الباهظة . أما الذى يذكر بأسف بالغ حقا فهو خروجهم على سياسة أسلافهم . تلك السياسة التى حققت للشعب جهازا حكوميا نظيفا مقتدرا مبرا من عوامل الفساد . لقد سمح ملوك الأسرة الرابعة لأنفسهم أن يؤثروا المقربين اليهم بمنح كانت فى أول الأمر قليلة الأهمية مثل ، كل انحراف فى بدايته . ثم أخذت ترقى فى مدارج الأهمية حتى بلغت القمة فى عهد الأسرة السادسة . هذه البداية البسيطة فى الخروج على مبادئ العدالة والمساواة المقررة انتهت بالشعب أبى حكم اقتطاعى مسرف فى ظلم الفلاحين فى القرى والموظفين والعمال فى المدن وهو الحكم الذى سلب هؤلاء وهؤلاء نصف حريتهم . وهوى بالمرأة إلى حضيض الذل والهوان بعد أن كانت عزيزة كريمة لا ترى لها رسوم الا فى مثل حجم زوجها ودلالته على المساواة التى كانت تنعم بها .

كان شعب الدولة القديمة يعيش فى ظل عقيدة وثنية تقوم على الإيمان بالله والإيمان بالعدل والأمان بالفضيلة . ومن ثم كانت حياته حرة أبية كريمة وتوقرت له كل أسباب النهوض فنهكس وكل أسباب الرقى فصعد . فلما انقلبت هذه الحياة إلى نقضها وهوى إلى حكم فى عهد الأسرة السادسة إلى حضيض الفساد وتوالى على الشعب مظالم الاقطاعيين وتكاثرت . ولما يئس من اصلاح ملوكه وحكامه ثار عليهم حوالى عام ٢٤٧٥ ق.م ثورة عامرة أذلت أعناقهم وشنت شملهم . وهى أول ثورة شعبية عرفها التاريخ . ولذلك أسميتها فى كتابى « تاريخ الثورات المصرية » أم الثورات .

(٢) الدولة الوسطى :

انتهت الثورة بقيام حكم صالح في البلاد . وكان من أهم الإصلاحات التى تحققت :

أ — اشاعة العدالة والجدية في أجهزة الحكومة . وقد حفلت الوثائق بأنبائها .

ب — إلغاء ملكية الحكومة والاعطاءيين للأراضى الزراعية وتوزيعها على الفلاحين بحيث يسلم لرب كل أسرة مساحة من الأرض تتناسب مع عدد أفراد أسرته . وفرضت الضرائب على الأراضى الزراعية لتمويل خزانة الحكومة ويقول الأستاذ عمر ممدوح مصطفى في كتابه (تاريخ القانون) أن بعض فقهاء القانون يرى أن هذا الإصلاح هو نظام اشتراكية الدولة ويرى بعضهم الآخر أنه على الرغم من أن الدولة كان لها الإشراف على العمال والفلاحين فقد كانت تتدخل لتراقب أحوال الزراعة والصناعة وتقوم بمهمة التوجيه والإرشاد إلا أنها مع ذلك لم تأخذ على عاتقها مهمة الاستغلال ولم تتكفل بدفع الأجور ولهذا يرون أن هذا الإصلاح هو نظام الاقتصاد الموجه وهو من النظم الاشتراكية أيضا .

ج — تخلصت العقيدة الدينية الى حد ما من خرافة الاعتقاد بمادية الحياة في القبور وتوقف اهتمام الملوك والعظماء بمقابرهم واتجهوا بأموال الدولة نحو المشروعات النافعة للشعب مثل إقامة أول خزان مياه عرفه التاريخ وكان على شكل قوس طوله حوالى عشرين ميلا حول بحيرة قارون بالفيوم تحجز أمامه مياه النيل الواردة إليها وقت الفيضان ومثل حفر ترعة ملاحية عظيمة تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر عن طريق النيل .

والأسس القوية المتينة التى قام عليها نظام الحكم فى هذه الدولة صالحة لبقائه مدة طويلة ولكن من المدهش أن ينهار هذا النظام بسرعة مذهلة فلم يعمر سوى قرنين من الزمان . والقرنان كانا فى تلك الأيام الخوالى مثل أربعين أو خمسين عاما من زمننا . اذا أخذنا فى الحسبان أن وسيلة المواصلات كانت الحمار برا والمراكب الشراعية بحرا .

ويعزى فى رأى قصر عمر النظم الصالحة فى مصر الى طيبة شعبها وسماحته . والشعوب الطيبة السمحة يسهل عادة التغيير بها . ولا تترك الحقائق الا بعد فوات الوقت المناسب ثم يطول الانتظار حتى تنتفض وتثار من هؤلاء الذين غرروا بها . وعلى أية حال فان عهد الدولة الوسطى قد انتهى بكارثة . فقد حدث فى عهد الأسرة الثالثة عشرة صراع على العرش بين قادة الجيش وكبار الموظفين وتوالت الانقلابات حتى أن بعض من اعتلى العرش لم يستقر عليه الا أياما معدودات . فعمت الفوضى البلاد واستشرى فى دواوين الحكومة الفساد . وظل الأمر على هذه الحال حتى فاجأت جيوش الهكسوس شعب مصر وجيشها المتهالك واحتلت أرض الكنانة وحكمت شعبها قرابة مائة وخمسين عاما .

وينبغى أن أشير الى أن حركة التحرير التى تحقق لها النجاح فى النهاية على يد الملك أحمدس الأول كانت تحركها وتشرف عليها سيدة مصرية عظيمة . وليسمح لى القارىء أن أنقل هنا ما كتبه عن هذه السيدة فى كتابى « تاريخ الثورات المصرية » .

« هذه البطولات التى كشفت عنها حروب التحرير والتى تثير فى النفس اقوى مشاعر التقدير والاعجاب والتى تثير فى نفوسنا نحن العرب الشعور بالعزة كانت تقف من ورائها سيدة عظيمة تشد من أزرها وتنفع فيها من روحها . تلك هى الملكة (اعح حتب) زوج الملك (سقن رع — تاعا الثانى) . لقد مات زوجها فى حومة الوغى

وهى ما تزال فى ربيع الحياة شابة جميلة نضرة وترك لها غلامين صنعت منهما اعظم قائدين شهدهما تاريخ مصر القديمة باستثناء تحتمس الثالث طبعاً — هما الملك (وارخبررع — كامس) والملك (احمس الأول) اللذان حملا عبء تحرير الكنانة من حكم الاستعمار الهكسوسى . وقد اقام (احمس الأول) لوحة فى معبد الكرنك اشار فيها الى الدور الذى لعبته هذه السيدة الجليلة فى حروب التحرير وتعتبر هذه الملكة بحق مثلاً رائعا للمواطنة الصالحة والام الفاضلة . فقد فجعت باستشهاد زوجها فى ساحة القتال وهى ما تزال فى ريعان الصبا . فوهبت نفسها لوطنها وعاشت له بكل جراحة من جوارحها . وتعهدت ولديها بحماس وعناية وكفاية ممتازة . آيتها ما كان من امرهما مع الهكسوس وما كان من حملهما رسالة أبيهما ونجاحهما فى انمامها . ومع ان ابنها (كامس) مات صغيراً فقد عرفت كيف تقى نفسها الانهيار والتحطم اللذين تتعرض لهما اية امرأة يصيبها ما اصاب (اعح حتب) من فقد زوجها ثم اكبر ابنائها . وواصلت السير فى الطريق الذى رسمته لنفسها — طريق تحرير وطنها من حكم الأجنبي — بأن تعهدت ابنها الثانى (احمس) وما زالت به حتى سلمته عنان الجواد وتركته ينطلق فى اثر الهكسوس فلم يعد لها الا بعد ان طهر منهم ارض الكنانة فكان نعم الابن وكان نعم الخلف لنعم السلف . ولقد اعتبر المؤرخون عهد الملك (احمس الاول) بداية الدولة الحديثة .

(٣) الدولة الحديثة :

دراسة تاريخ الدولة القديمة والدولة الوسطى تؤكد لنا ان المصريين القدماء كانوا اساتذة فى مختلف فروع العلم والمعارف خصوصاً ما اتصل منها بشئون الادارة والاقتصاد ومن ثم كان حرصهم الشديد على اقامة جهاز حكومى نظيف مقتدر لخدمة مجتمع نظيف مقتدر . غير اننا نلاحظ على ملوك الدولة الحديثة — وقد فتنوا بقوة الشعب وحيويته — شغفهم بالغزو والفتح . وكانت الانتصارات التى

أحرزوها بمثابة غشاة على عيونهم فلم يبصروا الحالة الاجتماعية التى كان عليها شعبهم . ولم يخفوا بالسياسة الداخلية حفلهم بالسياسة الخارجية التى استغرقت كل تفكيرهم واستأثرت بكل جهودهم .

لقد خرج الشعب بعد مائة وخمسين عاما من الحكم الأجنبى فقيرا فقرا مدقعا ماديا ومعنويا فى غياب القيم الانسانية والتقاليد العظيمة التى قامت عليها أمجاد الدولتين القديمة والوسطى . هذا الفقر لم يلتفت اليه أحد ولم يدرك خطره أحد . وظل تيار الانحلال الخلقى الذى استشرى خطره فى عهد الاحتلال مندفع لا يجد من يوقفه متفاقما لا يتصدى له أحد .

ان الأمراض الاجتماعية التى استشرت فى عهد الدولة الحديثة كثيرة ولا يعنينا منها فى هذه الدراسة الا ما يتصل بموضوعنا . ذلك ان الدور الخالد الذى لعبته السيدة الجليلة والملكة العظيمة (عج حبيب) من أجل تحرير بلادها قد أشعل غريزة التقليد فى نساء الملوك والعظماء وما دام عهد الكفاح والنضال قد انتهى فإن عليهن أن يبحثن عن مجالات أخرى يبرزون فيها كما برزت ويخرجن على الناس كما خرجت . ومن ثم حفل تاريخ تلك الدولة بالملكات اللاتي فرضن وصايتن على أولادهن الذين اعتلوا صغارا عرش بلادهم مثل (نفرتارى) زوج الملك (أحمس الأول) التى أعلنت وصايتها على ابنها الملك (أمنحوتب) ومنهن من انتزعن الحكم لأنفسهن مثل (حتشبسوت) التى كانت وصية على الملك (تحوتب الثالث) ثم عزلته قبل أن يبلغ سن الرشد . ومثل الملكة (تى) التى حكمت باسم زوجها الضعيف الملك (أمنحوتب الثالث) ثم حكمت باسم ابنها القاصر الملك (أمنحوتب الرابع) الذى سعى نفسه فيما بعد (أخناتون) . فلما مات وخلفه أخوه على العرش نارعتة (نفرتيتى) زوج (أخناتون) السلطة ولما لم يؤيدها الشعب استعادت عليه دولة أجنبية .

وكان لهذا التغيير في حياة نساء الأسرة المالكة وما فيه من خروج على قوانين الشعب وتقاليده التي تحرم عليهن ممارسة الحكم على أى وجه من الوجوه أثر كبير على حياة نساء البيوت الكبيرة اللائى خرجن الى الحياة الصاخبة وسعين الى اشباع نزعة السيطرة والتحكم مقتديات في ذلك بنساء الأسر المالكة . فماذا كانت نتيجة هذا التغيير في حياة المرأة المصرية في ذلك الزمان ؟ كانت على النحو التالى :

اولا : هربت الملكات من مسئولياتهن في القصر بما فيه من اهتمام بالملك ورعاية وعناية بأولادهن . وشغلن أوقاتهن بالتدخل في شئون الحكم والظهور في الحفلات العامة والخاصة . وصار الأمر كله في تربية الأولاد الى المربيات . ومعروف أن فسد الزوج اهتمام زوجه يؤدي حتما الى انصرافه عنها وفقد الأولاد حنان الأم ورعايتها يؤدي حتما الى انحرافهم . فلا عجب ان اذا رأينا قصور الملوك تشهد لأول مرة تعدد الزوجات فضلا عن ازدحامها بالمحظيات .

ثانيا : كان للمربيات نفوذ كبير استخدمنه في تعيين ذوى قرباهم في وظائف الدولة . وبذلك أصبح ذوات فضل عليهم واستشعرن علو مكانتهن على مكانتهم . فلا بأس عليهن ان تعالين عليهم وتحررن من قيود الرقابة والتوجيه التي كانت حقا للرجل في عهد الدولتين القديمة والوسطى على المرأة .

ثالثا : شاع ظهور المرأة في الحفلات والسهرات الماجنة . وقاسمت الرجل كؤوس الخمر وشاهدت معه اللوانا من الرقص الماجن . ولقد اعتاد القوم هذا الانصراف حتى انهم لم يستشعروا الخجل وهم يسجلونه على جدران مقابرهم بنقش مناظر الحفلات الماجنة عليها . وكأنهم قد فقدوا

تماما كل شعور بالعصية . وقد حرص الاستاذ سليم حسن على تسجيل هذه الظاهرة أو هذا المرض الاجتماعى الفثاك فى كتابه « مصر القديمة » .

رابعا : اولاد الملوك وكبار رجال الدولة الذين شبوا وترعرعوا فى احضان المربيات محرومين من رعاية وحنان أمهاتهم لم يكونوا قط فى مستوى المسؤولية التى حملوها ومنهم من لم يكن فى مستوى الوطنية . فنجد مثلا الملكة (حتشبسوت) ترشو الكهنة لكى يسبغوا الشرعية على اغتصابها العرش من الملك الشرعى (تحوتمس الثالث) والملك (أخناتون) الذى يزعم المؤرخون الأجانب انه نبى التوحيد كان شابا نزقا ماجنا مستهترا قصير النظر فارغا . لقد قال هؤلاء المؤرخون أنفسهم أن شهواته استعبدته استعبادا . حتى أن عشرات من النساء المصريات والأجنبيات عجزن عن اثباع غريزة الجنس فيه كما قالوا أنه عاشر أخاه (سنخ كارع) معاشرة الأزواج . وكان أمراء الأمصار يستنجدون به فى صد العدوان عن بلادهم فلا ينجدهم وإذا حضروا لمقابلته لا يقابلهم ويقول المؤرخون أنه كان مشغولا عن شئون الحكم بترائيله الدينية .

هل كان هذا كل ما أحدثه خروج المرأة المصرية الى الحياة العامة من آثار فى مجتمع الدولة الحديثة أو الامبراطورية المصرية على حد قول المؤرخين الأجانب ؟

لقد ازدهمت قصور الملوك وعلية القوم بمئات من الأجنبيات لأن جمالهن الثائر وخلاعتهن المثيرة كانت ضرورة لا غنى عنها لاستكمال اسباب الترف الذى استشرى أمره بين الأغنياء ... نرى مثلا الملك (أمنحوتب الثالث) يطلب الى أمير (جيزر) أن يرسل اليه أربعين من العذارى يتخيرهن من حسان أمارته وأرشقهن قواما

واشترط عليه أن يكن صبيحات الوجوه خاليات من شوائب الجمال .
وختم الملك رسالته الى الحاكم بقوله « وسأخذ من هذه الهدية
مقياسا لحسن ذوقك كما طلب من (شومانو) أحد أمراء سوريا عشرين
عذراء ومن (عبدى خيا) أمير اورشليم احدى وعشرين فتاة تسلم
لرسوله الأمين (ثوتا) حتى تصل اليه كما براها خالقها لم يمسيها
بشر ... وهنا يقول الاستاذ سليم حسن فى سفره العظيم « مصر
القديمة » :

« فليت شعرى أى شره هذا وليس بالكثير على رجل هذه
متعته المحببة أن تقاس أقدار الرجال عنده بما يقدمون اليه من غوان
تبدأ العين والقلب . فهذا « توشرتا » ملك المتنى يهدى اليه ثلاثين
حظية من البيض الرعابيب . كما أن علامة رضاه على العلية أو
الأشراف من رعاياه أن يهبهم من سبايا الحرب ما يستهوى القلب من
نوات الدل والخفر . فأصبح الهوى مسيطرا على قلوب الرجال
وتمتعت الغوانى بمنزلة فريدة وتطلع القوم الى المثل العليا فى الجمال
لا لعبادته وشمه ولكن لقطعه وضمه . والناس فى ذلك معذرون لأنهم
على دين ملوكهم يسرون » .

ولقد استغلت تلك المحظيات منزلتهن الفريدة فى جلب ذويهن
من رجال ونساء الى مصر واحلالهم فيها مكانا كريما . وكذلك كانت
بداية عهد الممالك فى الدولة الإسلامية وكأن التاريخ يعيد نفسه .
لقد زحف اقارب أولئك النسوة على وظائف الدولة فى دواوين الحكومة
وفى الجيش . وما زالوا يزحفون حتى نحو الوطنيين عن الوظائف
الكبيرة فى الدواوين ووظائف القيادة فى الجيش . وجاء اليوم الذى
كان الجيش المصرى فيه مؤلفا من ممالك من أجناس مختلفة سماهم
المؤرخون جنودا مرتزقة . وكان الملك « رمسيس الثانى » أول من
اعتمد عليهم اعتمادا كبيرا . وادخل فى الجيش منهم أعدادا وغيرة .
وهكذا نعلم أن حسد المرأة وانبهارها بالأضواء المسنطة على

الرجل قد أفسد حياتها الزوجية وامتنع كرامتها . ودفع بالرجل الى مهاوى الغواية ومخاطر الانحراف . ودفع بالبلاد فى النهاية الى قرار سحيق . فقد ضيعت أجيال الدولة الحديثة استقلال البلاد وسلموا حكمها للأجانب الذين استذلوا الشعب قرونا عديدة .

ان المصير الذى انتهت اليه الأسرة فى المجتمعات الغربية يجب ان يثير فزعنا واهتمامنا . فلم يعد هناك سوى « أسرة الصحبة » التى جعل علماء الاجتماع من بيتها مكانا يلتقى فيه أعضاء الأسرة للنوم أو طلبا للراحة من عناء العمل . ذلك أنه ما لم ننظم عملية تشغيل المرأة فى ضوء الاحتياجات الملحة للاقتصاد الوطنى والمصلحة العليا للمجتمع الإسلامى الذى ننسب اليه — فان مصير الأسرة عندنا الى تشتت وتمزق لا شك فيهما .

ان شر ما تتعرض له علاقة الرجل بزوجه أن تكون رئاسته لها ولسائر أفراد الأسرة موضع جدل ومناقشة وأن تكون لقمة العيش هى التى تشد المرأة الى زوجها وتخضعها لمشيئته وتدخلها فى طاعته . تلك فكرة غربية وثنية مادية مسرعة فى ماديتها . فالإسلام المعبر عن الفطرة البشرية أحسن وأصدق تعبير يلفتنا الى أن علاقة الرجل بزوجه هى الحياة بدونها لا تكون حياة على الأرض ومن ثم كانت حاجة الرجل الى المرأة مثل حاجتها اليه تماما . فراحة كل منهما وسعادته لا تتحقق الا فى ظل الحياة الزوجية النظيفة الشريفة . ولا ينبغي استغلال ما قضت به الفطرة من تخصيص الرجل لأعمال الكسب وتخصيص المرأة لأعمال الزوجية وتربية الأولاد واقتصاد الأسرة فى تضليل المرأة بمفاهيم باطلة .

ويوم تتخلص المرأة من رئاسة الرجل وهو المتوقع بعد سنوات قليلة اذا لم يبادر مجتمعنا الإسلامى الى ترشيد حركة تحرير المرأة وتحريرها من سيطرة الفكر الغربى فسيكون مصيرها هو نفس مصير

المرأة الغربية التي تقلدها وتحذو حذوها . ولن يمتعها من التردى في
هاوية الرذيلة انتسابها الى عقيدة دينية صحيحة .

ان حركة تحرير المرأة في مصر قد هوت بمستوى الفكر عند
المرأة المثقفة حتى فقدت احساسها بالقيمة العظيمة التي اضفتها
القدرة الالهية على انوثتها . وهى القيمة التي تتجلى في الاهتمام
الشديد بالحفاظ على طهرها .

ومع ذلك فان المرأة المثقفة لم تعد تلتفت الى هذه القيمة لانوثتها
بسبب انبهارها بتبرج المرأة الغربية وحرصها الشديد على تقليدها
في عرض هذه الانوثة عرضا مبتذلا في الشوارع وامكن العمل والمحلات
والحفلات ودور اللهو الماجن وغير الماجن خروجا بل وتمردا على قول
الله تبارك وتعالى :

« قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك
ازكى لهم ان الله خير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من
ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبين زينتهن الا لبعولتهن أو
آبائهن أو آباء بعولتهن أو ابنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو
بنى اخوانهن أو بنى اخواتهن أو نساءهن أو ما ملكت ايماهن
أو التابعين غير اولى الاربعة من الرجال أو الطفال
الذين لم يظهروا على عورات النساء . ولا يضرين بارجلهن ليعلم
ما يخفين من زينتهن . وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم
تفلحون » النور : ٣١ .

« والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن
جناح ان يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وان يستعففن خير لهن
والله سميع عليم » النور : ٦٠ .

« يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن

بالقول فيطمع الذي في قلبه درص وقلان قولا معروفا . وقرن في
بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة
وأطعن الله ورسوله . إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت
ويطهركم تطهيرا)) الأحزاب : ٣٢ - ٣٣ .

« يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين
عليهن من جلابيبهن ذلك أثنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا
رحيما)) الأحزاب : ٥٩ .

صدق الله العظيم



محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

الصفحة

الموضوع

٧

مقدمة

الفصل الأول

١١

حركة تحرير المرأة

الفصل الثاني

٢١

مفهوم تحرير المرأة - المفهوم الوثني

٢٧

المفهوم الاسلامي

٢٨

فساد الأسطورة الدينية

٣٠

ترويض التفوق الجسماني

٣٤

القسمية العادلة

٣٦

النساء في مجال العلوم

٣٨

القدرة العقلية للمرأة ومتطلبات العلم

الفصل الثالث

٤٩

مفهوم تحرير المرأة في مصر

- ٤٩ محاضرة السيدة هدى شعراوي
- ٥٣ ندوة المرأة وأجهزة الاعلام

الفصل الرابع

- ٥٧ تجربة قاسية
- ٥٨ المرأة في السويد
- ٥٩ المرأة في إنجلترا
- ٦٣ المرأة الأمريكية

الفصل الخامس

- ٧١ حركة تنوير لا تحرير

الفصل السادس

- ٨١ حوار

الفصل السابع

- ١٠٣ درس من التاريخ
- ١٠٣ الدولة القديمة
- ١٠٥ الدولة الوسطى
- ١٠٧ الدولة الحديثة

دارالعلوم للطباعة
القاهرة ٨٠ شارع صين مجارى (الصرافى)
ت. ٢١٨٤٨

رقم الايداع بدار الكتب ٤٠٢٩ - ١٩٨٣

الترقيم الدولي ٦ - ٠٠٤ - ١٤٢ - ٩٧٧